الآيات الكونية في القرآن الكريم

جمع وترتيب

من خطب ومحاضرات فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

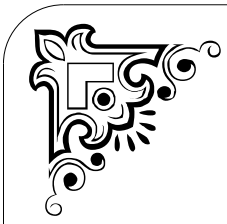

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

فَاللهُ ﷻ هُوَ الْحَيُّ، وَهُوَ الْبَاقِي ﷻ، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَىٰ الْوُجُودَ وُجُودَهُ، فَهُوَ الْخَالِقُ ﷻ، وَهُوَ الْبَارِئُ الَّذِي بَرَأَ هَذَا الْخَلْقَ كُلَّهُ وَأَبْدَعَهُ، فَهُوَ الْبَدِيعُ -بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ-، فَأَنْشَأَ هَذَا الْكَوْنَ كُلَّهُ، وَخَلَقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ كُلَّهَا مِنْ عُلْوِيَّةٍ وَسُفْلِيَّةٍ؛ لَا عَلَىٰ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَإِنَّمَا أَبْدَعَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْشَأَهَا وَبَرَاهَا مِنَ الْعَدَمِ، فَهِيَ تَحْتَاجُ وُجُودَهُ ﷻ فِي ابْتِدَاءِ وُجُودِهَا؛ لِأَنَّ وُجُودَهَا مِنْهُ، هُوَ الَّذِي أَوْجَدَهَا، ثُمَّ هِيَ مُحْتَاجَةٌ إِلَىٰ وُجُودِهِ ﷻ فِي اسْتِمْرَارِ وُجُودِهَا؛ لِأَنَّ وُجُودَهَا مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا.(*).

اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ، أَيْ: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِخَلْقِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبَرَأَ بِحِكْمَتِهِ جَمِيعَ الْبَرِيَّاتِ، وَصَوَّرَ بِإِحْكَامِهِ وَحُسْنِ خَلْقِهِ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ، فَخَلَقَهَا وَأَبْدَعَهَا وَفَطَرَهَا فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لَهَا، وَقَدَّرَ خَلْقَهَا أَحْسَنَ تَقْدِيرٍ، وَصَنَعَهَا أَتْقَنَ صُنْعٍ، وَهَدَاهَا لِمَصَالِحِهَا، أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ اللَّائِقَ بِهِ، ثُمَّ هَدَىٰ كُلَّ مَخْلُوقٍ لِمَا هُيِّأَ وَخُلِقَ لَهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةُ)، السَّبْتُ ١١ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٤-١٢-٢٠١٣م.

وَإِذَا كَانَ هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ، الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؛ فَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِلذَّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ مُؤْمِنًا وَالْكَافِرَ كَافِرًا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجْبِرَ الْعِبَادَ عَلَىٰ غَيْرِ مَا يُرِيدُونَ.(*).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢].

«يُخْبِرُ -تَعَالَىٰ- عَنْ عَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ الْمُوجِبِ لِخُسْرَانِ مَنْ كَفَرَ بِهِ فَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: هَذِهِ الْعِبَارَةُ وَمَا أَشْبَهَهَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ -غَيْرَ اللهِ- مَخْلُوقَةٌ، فَفِيهَا رَدٌّ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ قَالَ بِقِدَمِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ كَالْفَلَاسِفَةِ الْقَائِلِينَ بِقِدَمِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَكَالْقَائِلِينَ بِقِدَمِ الْأَرْوَاحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْمُتَضَمِّنَةِ تَعْطِيلَ الْخَالِقِ عَنْ خَلْقِهِ.

وَلَيْسَ كَلَامُ اللهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَخْلُوقَةِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ صِفَةُ الْمُتَكَلِّمِ، وَاللهُ -تَعَالَىٰ- بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَوَّلٌ لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، فَأَخْذُ أَهْلِ الِاعْتِزَالِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِهَا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ؛ فَإِنَّهُ -تَعَالَىٰ- لَمْ يَزَلْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَلَمْ يَحْدُثْ لَهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مُعَطَّلًا عَنْهَا بِوَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا: أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ خَالِقٌ لِجَمِيعِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ»(٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ فَتْحِ الرَّحِيمِ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ)، الْأَرْبِعَاءُ ٢٢ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٤هـ| ٣١-٧-٢٠١٣م.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٥٧).

وَيَقُولُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

«﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ﴾؛ أَيْ: إِعَادَةُ الْخَلْقِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ مِنَ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ، وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْأَذْهَانِ وَالْعُقُولِ، فَإِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ الِابْتِدَاءِ الَّذِي تُقِرُّونَ بِهِ؛ كَانَتْ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ الَّتِي هِيَ أَهْوَنُ أَوْلَىٰ وَأَوْلَىٰ.

وَلَمَّا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ مَا بِهِ يَعْتَبِرُ الْمُعْتَبِرُونَ، وَيَتَذَكَّرُ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَسْتَبْصِرُ الْمُهْتَدُونَ؛ ذَكَرَ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَالْمَطْلَبَ الْكَبِيرَ فَقَالَ: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾: وَهُوَ كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَالْكَمَالُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ، وَالْمَحَبَّةُ وَالْإِنَابَةُ التَّامَّةُ الْكَامِلَةُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ، وَالذِّكْرُ الْجَلِيلُ وَالْعِبَادَةُ مِنْهُمْ؛ فَالْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ هُوَ وَصْفُهُ الْأَعْلَىٰ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَسْتَعْمِلُونَ فِي حَقِّ الْبَارِي قِيَاسَ الْأَوْلَىٰ، فَيَقُولُونَ: كُلُّ صِفَةِ كَمَالٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ فَخَالِقُهَا أَحَقُّ بِالِاتِّصَافِ بِهَا عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْمَخْلُوقِ يُنَزَّهُ عَنْهُ فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهُ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ وَأَحْرَىٰ.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أَيْ: لَهُ الْعِزَّةُ الْكَامِلَةُ وَالْحِكْمَةُ الْوَاسِعَةُ، فَعِزَّتُهُ أَوْجَدَ بِهَا الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَظْهَرَ الْمَأْمُورَاتِ، وَحِكْمَتُهُ أَتْقَنَ بِهَا مَا صَنَعَهُ، وَأَحْسَنَ فِيهَا مَا شَرَعَهُ»[1].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٥٢).

فَتُؤَكِّدُ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَظِيمَةُ مَعَ آيَاتٍ أُخْرَىٰ كَثِيرَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لِهَذَا الْكَوْنِ بِإِرَادَتِهِ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ جَعَلَهُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ بِتِلْكَ الْإِرَادَةِ الْفَاعِلَةِ، وَالْقُدْرَةِ الطَّلِيقَةِ عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.(*).

إِنَّ وُجُودَ الْخَالِقِ لِلْكَوْنِ أَمْرٌ تَعْرِفُهُ الْعُقُولُ بَدَاهَةً؛ لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يُنْكِرُ وُجُودَ الْخَالِقِ فِيمَا مَضَىٰ إِلَّا فِئَاتٌ قَلِيلَةٌ مِنَ الْبَشَرِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتِ الرِّسَالَاتُ السَّمَاوِيَّةُ تَنْبَنِي عَلَىٰ إِقْرَارِ النَّاسِ بِوُجُودِ اللهِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ لَمْ يَأْتُوا مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقْنِعُوا أَقْوَامَهُمْ بِوُجُودِ اللهِ، وَإِنَّمَا أَتَوْا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْمُرُوا أَقْوَامَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ الَّذِي يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِهِ.

إِذَنْ؛ هَذَا أَمْرٌ مُقَرَّرٌ فِي الطَّبِيعَةِ، وَهُوَ مَا يَقُولُ لَهُ عُلَمَاؤُنَا فِي التَّوْحِيدِ: هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ.

فَهَذَا مُسْتَقِرٌّ مُرْتَكِزٌ فِي الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

فَالرُّسُلُ جَاءُوا؛ لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقَرِّرُوا تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَإِنَّمَا جَاءُوا مِنْ أَجْلِ دَعْوَةِ الْأَقْوَامِ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، فَهَذَا يَكُونُ مُرْتَكِزًا عَلَىٰ إِقْرَارِ الْخَلْقِ بِوُجُودِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّهُ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَمَالِكُهُ، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُهُ وَيُصَرِّفُهُ.

فَالْأَنْبِيَاءُ لَمْ يَبْدَءُوا مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّ هَذَا مُسْتَقِرٌّ فِي الْفِطَرِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَإِنَّمَا جَاءُوا يَأْمُرُونَ أَقْوَامَهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ، وَيُحْيِيهِمْ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (المُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ)، الْخَمِيسُ ١٦ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٩-١٢-٢٠١٣م.

وَيُمِيتُهُمْ، ثُمَّ لِيَزِيدَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ عِلْمًا بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيَدْعُونَهُمْ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ مِمَّا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ، أَيِ: الْأَقْوَامُ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يَعْبُدُونَهُ لَمْ يَخْلُقْ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَا يَرْزُقُهُمْ شَيْئًا، وَلَا يُحْيِي وَلَا يُمِيتُ، وَلَا يَتَّصِفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

إِذَنْ؛ هُوَ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ: تَعَالَوْا مِنْ أَجْلِ أَنْ أُثْبِتَ لَكُمْ أَنَّ اللهَ مَوْجُودٌ!

هَذَا مُقَرَّرٌ عِنْدَهُمْ، وَلَكِنْ قَالَ لَهُمْ: انْظُرُوا إِلَىٰ آلِهَتِكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَاعْلَمُوا -بَلْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ- أَنَّ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ، هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَمْلِكُ أَمْرَكُمْ وَيُدَبِّرُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

فَبَدَأَ بِدَعْوَتِهِمْ بِأَمْرِهِمْ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَهَذَا هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ، وَأَنْهَىٰ -كَذَلِكَ- الْآيَةَ الثَّانِيَةَ بِهَذَا الْأَمْرِ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وَهَذَا هُوَ مَحْضُ تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ بَدْءًا وَمُنْتَهًىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

هُمْ لَا يُمَارُونَ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، فَجَعَلَهُ سُلَّمًا لِإِلْزَامِهِمْ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَلَمَّا أَقَرُّوا بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ أَلْزَمَهُمْ بِتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مَا دُمْتُمْ تُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- هُوَ الَّذِي خَلَقَ، وَهُوَ -تَعَالَىٰ- الَّذِي يَمْلِكُ، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ؛ فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ.

فَالْأَنْبِيَاءُ جَاءُوا يَدُلُّونَ الْأَقْوَامَ عَلَىٰ هَذَا؛ حَتَّىٰ الَّذِينَ أَنْكَرُوا وُجُودَ الْخَالِقِ، وَالَّذِينَ يُسَمَّوْنَ فِي عَصْرِنَا بِالْمُلْحِدِينَ لَا يُنْكِرُ مُعْظَمُهُمْ وُجُودَ الْخَالِقِ أَيَّ خَالِقٍ، وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ وُجُودَ الْخَالِقِ الْحَقِّ الَّذِي دَعَتْهُمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِهِ رِسَالَاتُ السَّمَاءِ، فَهَذَا الَّذِي بِهِ يَكْفُرُونَ، وَالَّذِي كَانَ يُؤْمِنُ بِرُبُوبِيَّتِهِ مَنْ يُشْرِكُ مَعَهُ غَيْرَهُ فِي عِبَادَتِهِ.

انْظُرْ إِلَىٰ حَالِ الْمُلْحِدِينَ فِي عَصْرِنَا؛ تَرَاهُمْ إِذْ أَنْكَرُوا وُجُودَ الْخَالِقِ الْحَقِّ يَعْزُونَ حُدُوثَ الْأَشْيَاءِ إِلَىٰ أَشْيَاءَ أُخَرَ، وَهُمْ -وَإِنْ لَمْ يُسَمُّوهَا بِالْخَالِقَةِ- إِلَّا أَنَّهَا لَا بُدَّ أَنْ تَقُومَ عِنْدَهُمْ مَقَامَ الْخَالِقِ -سُبْحَانَهُ-؛ بَلْ وَيُضْفُونَ عَلَيْهَا بَعْضَ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ!!(*).

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ -تَعَالَى- الدَّلِيلَ الْعَقْلِيَّ وَالْبُرْهَانَ الْقَطْعِيَّ فِي سُورَةِ الطُّورِ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؛ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ خَالِقَهُمْ هُوَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ،

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ)، الْخَمِيسُ ٩ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٢-١٢-٢٠١٣م.

قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

«أَخُلِقَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ لَهُمْ وَمُوجِدٍ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ؟!! وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ بَاطِلٌ وَمُسْتَحِيلٌ، وَبِهَذَا يَتَعَيَّنُ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ»(١).

وَهَذَا دَلِيلٌ يُرْغِمُ الْعُلَمَاءَ عَلَىٰ التَّسْلِيمِ بِأَنَّ هُنَاكَ خَالِقًا مَعْبُودًا؛ إِلَّا أَنَّ الْآيَةَ صَاغَتْهُ صِيَاغَةً بَلِيغَةً مُؤَثِّرَةً، فَلَا تَكَادُ الْآيَةُ تُلَامِسُ السَّمْعَ حَتَّىٰ تُزَلْزِلَ النَّفْسَ وَتَهُزَّ الْقَلْبَ.

رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»(٢) بِسَنَدِهِ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِـ(الطُّورِ)، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور:٣٥-٣٧]؛ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ».

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ(٣): «قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّمَا كَانَ انْزِعَاجُهُ عِنْدَ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَةِ لِحُسْنِ تَلَقِّيهِ مَعْنَىٰ الْآيَةِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ بَلِيغِ الْحُجَّةِ، فَاسْتَدْرَكَهَا بِلَطِيفِ طَبْعِهِ، وَاسْتَشَفَّ مَعْنَاهَا بِزَكِيِّ فَهْمِهِ».

---

(١) «التفسير الميسر» (ص: ٥٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٤).

(٣) «الأسماء والصفات» (١/ ٣٩١) للبيهقي رَحِمَهُ اللهُ.

إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَسْلَمَ بَعْدُ، فَهَذَا هُوَ مَا سَمِعَهُ أَوَّلَ مَا دَخَلَ الْمَدِينَةَ؛ لِكَيْ يُكَلِّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي أَسْرَىٰ بَدْرٍ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ أَرْسَلَتْهُ رَسُولًا يُفَاوِضُ الرَّسُولَ ﷺ.

اخْتَارَ الْخَطَّابِيُّ فِي مَعْنَىٰ «﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور:٣٥]: وُجِدُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَذَلِكَ مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ؛ لِأَنَّ تَعَلُّقَ الْخَلْقِ بِالْخَالِقِ مِنْ ضَرُورَةِ الْأَمْرِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَالِقٍ، فَإِذَا أَنْكَرُوا الْإِلَهَ الْخَالِقَ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُوجَدُوا بِلَا خَالِقٍ خَلَقَهُمْ؛ أَفَهُمُ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ؟!!

وَذَلِكَ فِي الْفَسَادِ أَكْثَرُ، وَفِي الْبَاطِلِ أَشَدُّ؛ لِأَنَّ مَا لَا وُجُودَ لَهُ كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفًا بِالْقُدْرَةِ؟!!

وَكَيْفَ يَخْلُقُ؟!!

وَكَيْفَ يَتَأَتَّىٰ مِنْهُ الْفِعْلُ؟!!

وَإِذَا بَطَلَ الْوَجْهَانِ مَعًا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ لَهُمْ خَالِقًا؛ فَلْيُؤْمِنُوا بِهِ!

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور:٣٦]، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَدَّعُوهُ بِوَجْهٍ، فَهُمْ مُنْقَطِعُونَ، وَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ»(١).

وَهَذَا الَّذِي قَرَّرَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَدَّعُوهُ.. فَائِدَةُ ذِكْرِهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ: قَطْعُ اللَّجَاجِ وَالْخِصَامِ؛ إِذْ قَدْ يُوجَدُ جَاحِدٌ مُعَانِدٌ مُكَابِرٌ يَقُولُ: أَنَا خَلَقْتُ نَفْسِي!! كَمَا زَعَمَ مَثِيلٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ بِأَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى

(١) «الأسماء والصفات» (٢/ ٣٧٤)، «مختصر تفسير البغوي» (ص: ٩٠٤).

حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فَمَاذَا كَانَ الْجَوَابُ؟

سُؤَالٌ آخَرُ أَبَانَ عَجْزَهُ، وَأَكْذَبَهُ فِي زَعْمِهِ الْأَوَّلِ: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾.

فَكَانَتِ النَّتِيجَةُ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

هَبْ شَخْصًا قَالَ: أَنَا خَلَقْتُ نَفْسِي؛ كَمِثْلِ هَذَا الَّذِي قَالَ: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾، فَيَأْتِي بِذَلِكَ مُكَابَرَةً وَعِنَادًا.

فَيُقَالُ لَهُ -حِينَئِذٍ-: أَخَلَقْتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟!!

فَهَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟!!

فَإِذَا كَانَ الْعَدَمُ لَا يُوجِدُ سَمَاءً وَلَا أَرْضًا، وَإِذَا كَانَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَمْ تُوجِدَا نَفْسَيْهِمَا، وَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ لَا يَسْتَطِيعُونَ الِادِّعَاءَ بِأَنَّهُمْ أَوْجَدُوا ذَلِكَ كُلَّهُ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ، وَهَذَا الْمُوجِدُ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةُ)، الْأَحَدُ ١٢ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٥-١٢-٢٠١٣م.

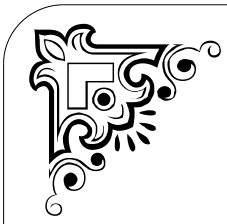

الْآيَاتُ كَوْنِيَّةٌ وَشَرْعِيَّةٌ وَمَعْرِفَةُ اللهِ بِهَا

إِنَّ آيَاتِ اللهِ نَوْعَانِ: شَرْعِيَّةٌ وَكَوْنِيَّةٌ، فَالشَّرْعِيَّةُ: الْوَحْيُ الْمَعْصُومُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ وَحْيٌ مُتَكَامِلٌ مُنْتَظِمٌ، لَا تَنَاقُضَ فِيهِ وَلَا اضْطِرَابَ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢]؛ ولِأَنَّ الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةَ قَامَتْ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ كُلِّهَا؛ فَيُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ الْقِيَامِ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ عَلَىٰ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْآيَاتِ: الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ.

آيَاتُ اللهِ -تَعَالَىٰ- نَوْعَانِ: كَوْنِيَّةٌ وَشَرْعِيَّةٌ، فَالْكَوْنِيَّةُ هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ، وَالشَّرْعِيَّةُ هِيَ الْوَحْيُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ.

وَمَعْرِفَةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **تَكُونُ بِأَسْبَابٍ، مِنْهَا:** النَّظَرُ وَالتَّفَكُّرُ فِي مَخْلُوقَاتِهِ ﷻ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَىٰ مَعْرِفَتِهِ وَمَعْرِفَةِ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ فَالتَّأَمُّلُ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ يُؤَدِّي إِلَىٰ مَعْرِفَةِ عَظِيمِ سُلْطَانِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَتَمَامِ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ؛ قَالَ رَبُّنَا -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦].

وَقَالَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: ٦].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

فَالنَّظَرُ وَالتَّفَكُّرُ فِي مَخْلُوقَاتِ اللهِ ﷻ وَآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ يُؤَدِّي إِلَىٰ مَعْرِفَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَمَعْرِفَةِ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَتَمَامِ قُدْرَتِهِ وَتَمَامِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

فَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ مَعْرِفَةِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وَمِنْ أَسْبَابِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ: النَّظَرُ فِي آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ الْوَحْيُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ فَيَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا تَقُومُ حَيَاةُ الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا بِهَا، فَإِذَا نَظَرَ الْإِنْسَانُ فِي آيَاتِ رَبِّنَا الشَّرْعِيَّةِ -وَهِيَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ-، إِذَا نَظَرَ فِي الْقُرْآنِ وَتَأَمَّلَهُ، وَنَظَرَ فِيمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَوَجَدَ انْتِظَامَ آيَاتِهِ وَمُوَافَقَتَهَا

لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ؛ عَرَفَ بِذَلِكَ رَبَّهُ ﷻ، كَمَا قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ.

فَالنَّظَرُ فِي آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَالنَّظَرُ فِي آيَاتِ اللهِ الشَّرْعِيَّةِ، النَّظَرُ فِي الْآيَاتِ الْمَنْظُورَةِ، وَالنَّظَرُ فِي الْآيَاتِ الْمَسْطُورَةِ؛ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ مَعْرِفَةِ اللهِ، وَمَعْرِفَةِ عَظِيمِ سُلْطَانِه وَبَاهِرِ قُدْرَتِهِ.

يُعْرَفُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ الْعَظِيمَةُ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الصَّنْعَةِ، وَبَالِغِ الحِكْمَةِ، وَكَذَلِكَ يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ العَدْلِ، وَالِاشْتِمَالِ عَلَىٰ المَصَالِحِ وَدَفْعِ المَفَاسِدِ.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الْوَاحِدُ

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت:٣٧] فِي تَعَاقُبِهِمَا وَاخْتِلَافِهِمَا فِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِجَرَيَانِهِمَا بِاسْتِمْرَارٍ -مُنْذُ خَلَقَهُمَا رَبُّنَا تَعَالَىٰ-، وَبِانْتِظَامِهِمَا فِي تَسْيِيرِهِمَا، وَبِمَا فِيهِمَا مِنَ المَنَافِعِ العَظِيمَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧].

وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ، وَمَا فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الْعَظِيمَةِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي عُلُوِّهَا، وَسَعَتِهَا، وَعِظَمِ خَلْقِهَا، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ جَعَلَهَا اللهُ فِرَاشًا وَمِهَادًا، وَذَلَّلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لِلْعِبَادِ، وَجَعَلَ فِيهِمَا سُبُلًا.

كُلُّ هَذِهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ كَمَالِ القُدْرَةِ، وَكَمَالِ الحِكْمَةِ، وَكَمَالِ الرَّحْمَةِ.

وَالشَّمْسُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﷻ؛ لِكَوْنِهَا تَسِيرُ سَيْرًا مُنْتَظِمًا بَدِيعًا مُنْذُ خَلَقَهَا اللهُ ﷻ، وَإِلَىٰ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِالقِيَامَةِ؛ فَهِيَ تَسِيرُ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس:٣٨]، وَهِيَ مِنْ آيَاتِ اللهِ -تَعَالَىٰ- بِحَجْمِهَا وَآثَارِهَا؛ أَمَّا حَجْمُهَا فَعَظِيمٌ جِدًّا، وَأَمَّا آثَارُهَا؛ فَمَا يَحْصُلُ مِنْهَا مِنَ المَنَافِعِ لِلْأَجْسَامِ، وَالأَشْجَارِ، وَالأَنْهَارِ، وَالبِحَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ الشَّمْسِ -هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ- مَا مَدَىٰ الْبُعْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّنَا نَجِدُ حَرَارَتَهَا هَذِهِ الْحَرَارَةَ الْعَظِيمَةَ.

ثُمَّ انْظُرْ مَاذَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الْإِضَاءَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا تَوْفِيرُ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ عَلَىٰ النَّاسِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ فِي النَّهَارِ يَسْتَغْنُونَ عَنْ كُلِّ إِضَاءَةٍ يَحْصُلُ بِهَا مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ لِلنَّاسِ مِنْ تَوْفِيرِ أَمْوَالِهِمْ، وَيُعَدُّ هَذَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي لَا نُدْرِكُ إِلَّا اليَسِيرَ مِنْهَا.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾ [فصلت:٣٧]: وَالْقَمَرُ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﷻ؛ حَيْثُ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ، لِكُلِّ لَيْلَةٍ مَنْزِلَةٌ ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس:٣٩]، وَهُوَ يَبْدُو صَغِيرًا، ثُمَّ يَكْبُرُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حَتَّىٰ يَكْمُلَ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَىٰ النَّقْصِ.

تُوَقَّىٰ الْبُدُورُ النَّقْصَ وَهْيَ أَهِلَّةٌ ... وَيُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهْيَ كَوَامِلُ

وَهُوَ يُشْبِهُ الْإِنْسَانَ؛ حَيْثُ إِنَّهُ يُخْلَقُ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَرَقَّىٰ مِنْ قُوَّةٍ إِلَىٰ قُوَّةٍ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَى الضَّعْفِ مَرَّةً أُخْرَىٰ -فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ-.

مِنَ الْعَلَامَاتِ الْبَيِّنَةِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَدْلُولِهَا: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي ذَاتِهِمَا وَاخْتِلَافِهِمَا، وَمَا أَوْدَعَ اللهُ فِيهِمَا مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَتَقَلُّبَاتِ أَحْوَالِهِمْ، وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِي ذَاتِهِمَا وَسَيْرِهِمَا وَانْتِظَامِهِمَا، وَمَا يَحْصُلُ بِذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ نَهَىٰ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْعِبَادَ أَنْ يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ أَوِ القَمَرِ؛ وَإِنْ بَلَغَا مَبْلَغًا عَظِيمًا فِي نُفُوسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يَسْتَحِقَّانِ الْعِبَادَةَ لِكَوْنِهِمَا مَخْلُوقَيْنِ، وَإِنَّمَا الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ هُوَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الَّذِي خَلَقَهُنَّ.

وَمِنْ آيَاتِهِ وَمِنْ حُجَجِهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَاخْتِلَافُهُمَا، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت:٣٧]؛ فَإِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَإِنْ كَانَا مِنْ آيَاتِ اللهِ العَظِيمَةِ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ لَهُمَا؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَإِنْ جَرَيَا فِي الفَلَكِ لِمَنَافِعِكُمْ أَيُّهَا البَشَرُ فَإِنَّهُمَا مُسَخَّرَانِ، لَايَسْتَطِيعَانِ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَكِنِ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ» (الْمُحَاضَرَةُ الرَّابِعَةُ)، السَّبْتُ ٩ مِنْ صَفَرٍ ١٤٢٩هـ| ١٦-٢-٢٠٠٨م.

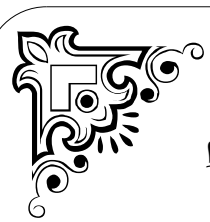

جُمْلَةٌ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ آيَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكَوْنِيَّةَ دَالَّةٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعَلَى كَمَالِ رُبُوبِيَّتِهِ؛ فَإِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ آيَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَرَبٌّ عَظِيمٌ كَامِلُ الْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالْعَظَمَةِ وَالسُّلْطَانِ(١)، **وَمِنْ آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّكَ** «تَرَىٰ الْجِبَالَ تَظُنُّهَا وَاقِفَةً مُسْتَقِرَّةً وَهِيَ تَسِيرُ سَيْرًا حَثِيثًا كَسَيْرِ السَّحَابِ الَّذِي تُسَيِّرُهُ الرِّيَاحُ، وَهَذَا مِنْ صُنْعِ اللهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَتْقَنَهُ»(٢)، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨].

وَتَرَىٰ الْجِبَالَ -أَيُّهَا الرَّائِي- تَظُنُّهَا مُتَمَاسِكَةً لَا حَرَكَةَ لِذَرَّاتِهَا وَلَا سَيْرَ لَهَا فِي جُمْلَتِهَا، وَهِيَ فِي وَاقِعِ حَالِهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ الَّذِي تَتَحَرَّكُ ذَرَّاتُهُ تَحَرُّكًا دَاخِلِيًّا، وَيَسِيرُ فِي جُمْلَتِهِ مِنْ مَوْقِعٍ إِلَىٰ مَوْقِعٍ فِي السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ حَالُ الْجِبَالِ وَسَائِرِ مَا فِي الْأَرْضِ؛ إِذْ ذَرَّاتُ كُلِّ شَيْءٍ تَتَحَرَّكُ حَرَكَاتٍ فِي دَوَائِرَ وَأَقْفَالٍ مُقْفَلَةٍ.

وَجُمْلَةُ الْأَرْضِ مَعَ جِبَالِهَا تَمُرُّ سَائِرَةً فِي دَوْرَةٍ يَوْمِيَّةٍ حَوْلَ نَفْسِهَا، وَفِي دَوْرَةٍ سَنَوِيَّةٍ حَوْلَ الشَّمْسِ.

---

(١) «خطبة: آيات الله الكونية» للعلَّامة: محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٣٨٤).

صَنَعَ اللهُ ذَلِكَ صُنْعًا الَّذِي أَحْكَمَ صُنْعَهُ، وَجَعَلَهُ مُطَابِقًا لِلْمَقْصُودِ مِنْهُ.(*).

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ ﷻ: خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ؛ فَفِي السَّمَاوَاتِ مَلَائِكَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ، مَا مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ للهِ، أَوْ رَاكِعٌ، أَوْ سَاجِدٌ(٢)، وَفِي السَّمَاءِ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَطُوفُ كُلَّ يَوْمٍ بِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَفِي الْأَرْضِ مِنْ أَجْنَاسِ الدَّوَابِّ وَأَنْوَاعِهَا مَا لَا تُحْصَى أَجْنَاسُهُ(٣)، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

إِنَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ لَدَلَائِلَ وَاضِحَاتٍ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ -تَعَالَىٰ- وَإِلَهِيَّتِهِ، وَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ:

الْآيَةُ الْأُولَىٰ: آيَةُ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ بِارْتِفَاعِهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَفِي مَدِّ الْأَرْضِ وَبَسْطِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ، وَالْبِحَارِ، وَالْأَنْهَارِ، وَالْأَشْجَارِ.

وَالْآيَةُ الثَّانِيَةُ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَىٰ مُحِيطِ الْأَرْضِ فِي الْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ وَالظُّلْمَةِ وَالنُّورِ بِنِظَامٍ مُحْكَمٍ وَدَقِيقٍ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [النمل: ٨٨].

(٢) أخرجه الترمذي في «السنن» (٢٣١٢).

(٣) «خطبة: آيات الله الكونية» للعلَّامة: محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

وَالْآيَةُ الثَّالِثَةُ: السُّفُنُ الَّتِي تَجْرِي عَلَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ مُوخَرَةً مُحَمَّلَةً بِالْأَثْقَالِ، وَتَنْقُلُهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَىٰ آخَرَ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِي تِجَارَاتِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ.

وَالْآيَةُ الرَّابِعَةُ: الدَّوْرَةُ الْمَائِيَّةُ، وَنِظَامُ تَحْلِيَةِ الْمَاءِ بِالتَّبَخُّرِ وَالِاجْتِمَاعِ فِي السَّحَابِ، ثُمَّ هُطُولُهُ مَطَرًا عَلَىٰ مَا يَشَاءُ اللهُ، وَلِمَنْ يَشَاءُ اللهُ، وَآيَةُ دَوْرَةِ الْحَيَاةِ النَّبَاتِيَّةِ.

وَالْآيَةُ الْخَامِسَةُ: مَا فَرَّقَ اللهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الدَّوَابِّ كُلِّهَا عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَحْجَامِهَا، وَأَشْكَالِهَا، وَأَلْوَانِهَا، وَأَصْوَاتِهَا، وَمُدَدِ حَمْلِهَا، وَكَيْفِيَّةِ تَنَاسُلِهَا، وَوُجُوهِ الِانْتِفَاعِ بِهَا.

وَالْآيَةُ السَّادِسَةُ: تَقْلِيبُ اللهِ الرِّيَاحَ، وَتَنْوِيعُهَا فِي جِهَاتِهَا شَرْقًا وَغَرْبًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا، وَفِي أَحْوَالِهَا حَارَّةً وَبَارِدَةً، وَعَاصِفَةً وَلَيِّنَةً، وَمُلَقِّحَةً لِلنَّبَاتِ وَعَقِيمًا.

وَالْآيَةُ السَّابِعَةُ: الْغَيْمُ الْمُذَلَّلُ الْمُسَيَّرُ وَفْقَ مَقَادِيرِ اللهِ وَأَوَامِرِهِ الْحَكِيمَةِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ السَّبْعِ دَلَائِلُ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَعَجَائِبُ دَالَّةٌ عَلَىٰ عَظَمَةِ قُدْرَتِهِ، وَإِبْدَاعِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ، وَكَمَالِ إِرَادَتِهِ، وَوَاسِعِ عِلْمِهِ، وَجَلِيلِ حِكْمَتِهِ وَإِتْقَانِهِ، مَعَ عِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ.

كُلُّهَا آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ عَقْلًا عِلْمِيًّا، فَيَعْلَمُونَ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ خَالِقًا وَمُدَبِّرًا قَادِرًا عَلَىٰ مَا يُرِيدُ.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [البقرة: ١٦٤].

مَنْ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فِي حُسْنِهَا، وَكَمَالِهَا، وَارْتِفَاعِهَا، وَقُوَّتِهَا؛ عَلِمَ بِذَلِكَ تَمَامَ قُدْرَةِ اللهِ، وَتَمَامَ حِكْمَتِهِ، وَتَمَامَ رَحْمَتِهِ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

وَبَنَيْنَا السَّمَاءَ بِأَيْدٍ، أَيْ: بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ فِيهَا خَلْقًا وَامْتِدَادًا لِأَرْجَائِهَا وَأَنْحَائِهَا بَعْدَ خَلْقِهَا الْأَوَّلِ مَعَ تَوَالِي الْأَزْمَانِ.(*).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩].

أَخَلْقُكُمْ يَا مَنْ أَنْكَرْتُمُ الْبَعْثَ.. أَخَلْقُكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ أَصْعَبُ وَأَشَقُّ، أَمْ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ بِأَبْعَادِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ نُجُومٍ لَا تُحْصَىٰ، بَنَاهَا بِنَاءً عَظِيمًا مُحْكَمًا لَا خَلَلَ فِيهِ وَلَا نَقْصَ، وَأَعْلَىٰ سَقْفَهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ، فَأَتْقَنَ بِنَاءَهَا فَجَعَلَهَا تَامَّةً مُسْتَوِيَةً، بِالِغَةً الْغَايَةَ الْمَطْلُوبَةَ الْمَقْصُودَةَ مِنْ خَلْقِهَا، وَأَظْلَمَ لَيْلَهَا، وَأَظْهَرَ وَأَبْرَزَ نَهَارَهَا بِضِيَاءِ الشَّمْسِ.(*/٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الذاريات: ٤٧].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النازعات: ٢٧-٢٩].

أَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا مَا لَدَيْهِمْ مِنْ أَدَوَاتِ نَظَرٍ تَفَكُّرِيٍّ، فَلَمْ يَنْظُرُوا حِينَ كَفَرُوا بِالْبَعْثِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الْعَظِيمَةِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَجَمَّلْنَاهَا وَحَسَّنَّاهَا بِالْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ، وَمَا لَهَا مِنْ شُقُوقٍ وَلَا صُدُوعٍ؟!!(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك: ٣].

هُوَ الَّذِي خَلَقَ فِي كَوْنِهِ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، فَجَعَلَهَا مُتَطَابِقَةً بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ؛ كُلُّ كُرَةٍ تُحِيطُ بِالْكُرَةِ الدَّاخِلَةِ فِيهَا إِلَىٰ سَبْعِ كُرَاتٍ.

مَا تَرَىٰ -أَيُّهَا النَّاظِرُ الْمُدَقِّقُ- فِي شَيْءٍ مِنْ خَلْقِ الرَّحْمَنِ اعْوِجَاجًا وَلَا اخْتِلَافًا وَلَا تَنَاقُضًا عَنْ قُصْوَىٰ دَرَجَاتِ إِتْقَانِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَكَرِّرِ النَّظَرَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ؛ هَلْ تَرَىٰ فِيهَا مِنْ شُقُوقٍ وَصُدُوعٍ؟!!(*/٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء: ٣٢].

«﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا﴾ لِلْأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا ﴿مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ مِنَ السُّقُوطِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر:٤١]، مَحْفُوظًا -أَيْضًا- مِنَ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ لِلسَّمْعِ، ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء:٣٢] أَيْ:

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [ق: ٦].
(*/ ٢) مَا مَرَّ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الملك: ٣].

غَافِلُونَ لَاهُونَ، وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ آيَاتِ السَّمَاءِ؛ مِنْ عُلُوِّهَا، وَسَعَتِهَا، وَعَظَمَتِهَا، وَلَوْنِهَا الْحَسَنِ، وَإِتْقَانِهَا الْعَجِيبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَشَاهِدِ فِيهَا؛ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا النَّيِّرَاتِ، الْمُتَوَلِّدِ عَنْهُمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَكَوْنِهِمَا دَائِمًا فِي فَلَكِهِمَا سَابِحَيْنِ، وَكَذَلِكَ النُّجُومُ، فَتَقُومُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَنَافِعُ الْعِبَادِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْفُصُولِ، وَيَعْرِفُونَ حِسَابَ عِبَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ، وَيَسْتَرِيحُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَيَهْدَئُونَ وَيَسْكُنُونَ، وَيَنْتَشِرُونَ فِي نَهَارِهِمْ، وَيَسْعَوْنَ فِي مَعَايِشِهِمْ»(١).

فِي هَذِهِ السَّمَاءِ وَفِي جَوِّهَا مِنْ آيَاتِ اللهِ مَا يَبْهَرُ الْعُقُولَ، وَمِنْ ذَلِكَ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٦١].

«﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾: وَهِيَ النُّجُومُ عُمُومُهَا، أَوْ مَنَازِلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الَّتِي تَنْزِلُهَا مَنْزِلَةً مَنْزِلَةً، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْبُرُوجِ وَالْقِلَاعِ لِلْمُدُنِ فِي حِفْظِهَا، كَذَلِكَ النُّجُومُ بِمَنْزِلَةِ الْبُرُوجِ الْمَجْعُولَةِ لِلْحِرَاسَةِ؛ فَإِنَّهَا رُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ فِيهِ النُّورُ وَالْحَرَارَةُ، وَهِيَ الشَّمْسُ، ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ فِيهِ النُّورُ لَا الْحَرَارَةُ، وَهَذَا مِنْ أَدِلَّةِ عَظَمَتِهِ، وَكَثْرَةِ إِحْسَانِهِ؛ فَإِنَّ مَا فِيهَا مِنَ الْخَلْقِ الْبَاهِرِ وَالتَّدْبِيرِ الْمُنْتَظِمِ وَالْجَمَالِ الْعَظِيمِ دَالٌّ عَلَىٰ عَظَمَةِ خَالِقِهَا فِي أَوْصَافِهِ كُلِّهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَالِحِ لِلْخَلْقِ وَالْمَنَافِعِ دَلِيلٌ عَلَىٰ كَثْرَةِ خَيْرَاتِهِ»(٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٠٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٨٥).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وَاللهُ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ لِتَتَصَرَّفُوا فِيهِ، وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَجْرِي فِي مَدَارِهِ، وَيَسِيرُ بِسُرْعَةٍ كَالسَّابِحِ فِي الْمَاءِ دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَا لِخَلَلٍ يُخْرِجُهُمَا عَنِ النِّظَامِ الْمُقَدَّرِ لَهُمَا.(*).

مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ: جَرَيَانُ الشَّمْسِ، وَمَنَازِلُ الْقَمَرِ؛ فَالشَّمْسُ آيَةٌ لَهُمْ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ قَدَّرَهُ اللهُ لَهَا، لَا تَتَعَدَّاهُ وَلَا تَقْصُرُ عَنْهُ، ثُمَّ هَذَا الْقَمَرُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ.. آيَةُ اللَّيْلِ، جَعَلَهُ اللهُ -تَعَالَى- مُقَدَّرًا بِمَنَازِلَ؛ لِنَعْلَمَ بِذَلِكَ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، وَلَهُ آثَارٌ عَلَى الْبِحَارِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَجْسَامِ بِاخْتِلَافِ هَذِهِ الْمَنَازِلِ(٢)، **يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾ [يس: ٣٨-٣٩].

هَذِهِ الشَّمْسُ تَسِيرُ بِانْتِظَامٍ مُسْرِعَةً إِلَىٰ مُسْتَقَرٍّ لَهَا قَدَّرَهُ اللهُ زَمَانًا وَمَكَانًا، ذَلِكَ الْجَرَيَانُ الْمُتْقَنُ الْعَجِيبُ الْمُسْتَمِرُّ لِبُلُوغِ مُسْتَقَرٍّ يَتَوَقَّفُ عِنْدَهُ جَرَيَانُ الشَّمْسِ فِي مَكَانٍ مُحَدَّدٍ مِنَ الْكَوْنِ، وَزَمَانٍ مُحَدَّدٍ مِنَ الدَّهْرِ.

ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْقَوِيِّ الْغَالِبِ بِقُدْرَتِهِ، الْمُحِيطِ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي حَدَّدَ مَقَادِيرَ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا الشَّمْسُ، وَمَقَادِيرَ حَجْمِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَجْمُوعَتِهَا، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَجْمُوعَاتِ النُّجُومِ الْأُخْرَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [الأنبياء: ٣٣].

(٢) «خطبة: آيات الله الكونية» للعلَّامة: محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

وَقَدَّرْنَا لِلْقَمَرِ مَنَازِلَ يَنْزِلُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلٍ مِنْهَا لَا يَتَعَدَّاهُ، يَبْدَأُ هِلَالًا ضَئِيلًا حَتَّىٰ يَكْمُلَ قَمَرًا مُسْتَدِيرًا، ثُمَّ يَرْجِعُ فِي آخِرِ مَنَازِلِهِ ضَئِيلًا مِثْلَ عُودِ النَّخْلَةِ الْمُتَقَوِّسِ الْيَابِسِ الْمُصْفَرِّ كَمَا كَانَ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ.(*).

وَالْقَمَرُ مُرْتَبِطٌ بِالْأَرْضِ، يَدُورُ حَوْلَهَا، وَيَنْفَعُ أَهْلَهَا، وَكَانَ مِنْ قَبْلُ قِطْعَةً مِنْهَا كَمَا كَانَتْ هِيَ قِطْعَةً مِنَ الشَّمْسِ، فَخَالِقُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا وَاحِدٌ -سُبْحَانَهُ-.

الْأَرْضُ إِنْ هِيَ إِلَّا سَيَّارٌ مِنْ سَيَّارَاتِ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ؛ وَإِنِ امْتَازَتْ عَنْ سَائِرِهَا بِالْحَيَاةِ الدَّافِقَةِ.

بَقِيَّةُ السَّيَّارَاتِ وَأَقْمَارُهَا أَصْلُهَا -أَيْضًا- الشَّمْسُ، وَهِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِهَا كَارْتِبَاطِ الْأَرْضِ وَقَمَرِهَا بِهَا؛ فَخَالِقُ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ وَمَا فِيهَا وَاحِدٌ -سُبْحَانَهُ-.

وَهَذِهِ مِنْ طُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَىٰ الْوَحْدَانِيَّةِ؛ بِإِثْبَاتِ وِحْدَةِ النِّظَامِ الْحَاكِمِ لِلْكَوْنِ، فَيَدُلُّكَ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ مَصْدَرَهُ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا.(*/٢).

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ، ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠] **وَمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَظِيمَةِ يُعْلَمُ بِهَا تَمَامُ قُدْرَةِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، مَهَّدَهَا اللهُ -تَعَالَى- لِخَلْقِهِ، وَسَلَكَ لَهُمْ فِيهَا سُبُلًا، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا، جَعَلَهَا اللهُ لِعِبَادِهِ ذَلُولًا يَمْشُونَ فِي مَنَاكِبِهَا، وَيَأْكُلُونَ مِنْ رِزْقِهِ، فَيَحْرُثُونَ**

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[يس: ٤٠].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّامِنَةُ: الْأَدِلَّةُ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ ﷻ)، الِاثْنَيْنِ ١٣ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٦-١٢-٢٠١٣م.

وَيَزْرَعُونَ، وَيَصِلُونَ إِلَى الْمِيَاهِ فِي جَوْفِهَا، فَيَسْقُونَ وَيَشْرَبُونَ، جَعَلَهَا اللهُ -تَعَالَى- قَرَارًا لِلْخَلْقِ، لَا تَمِيدُ بِهِمْ، وَلَا تَضْطَرِبُ وَلَا تَزَلْزَلُ وَلَا تَتَصَدَّعُ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ -تَعَالَى-(١)، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق: ٧]

وَالْأَرْضَ بَسَطْنَاهَا وَوَسَّعْنَاهَا، وَأَمْدَدْنَاهَا بِالْعَنَاصِرِ الصَّالِحَةِ لِنَفْعِ النَّاسِ وَرِزْقِهِمْ، وَأَلْقَيْنَا فِيهَا جِبَالًا ثَوَابِتَ تَمْنَعُهَا مِنَ الْمَيَلَانِ وَالِاضْطِرَابِ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ الزُّرُوعِ وَالْأَشْجَارِ كَرِيمٍ حَسَنٍ يُسَرُّ بِهِ النَّاظِرُ إِلَيْهِ.(*).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢].

وَدَحْرَجَ الْأَرْضَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَجَعَلَهَا كُرَوِيَّةً تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا فِي اتِّجَاهِ الشَّمْسِ دَوْرَةً كَامِلَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَكُونُ مِنْ أَثَرِهَا ظَاهِرَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَدُورُ فِي مَدَارٍ حَوْلَ الشَّمْسِ دَوْرَةً كَامِلَةً فِي كُلِّ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ يَكُونُ مِنْ أَثَرِهَا الْفُصُولُ الْأَرْبَعَةُ، أَخْرَجَ مِنَ الْأَرْضِ مَاءَهَا بِتَفْجِيرِ الْعُيُونِ، وَإِجْرَاءِ الْأَنْهَارِ وَالْبِحَارِ الْعِظَامِ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا جَمِيعَ مَا يَقْتَاتُ بِهِ النَّاسُ وَالدَّوَابُّ، وَالْجِبَالَ أَثْبَتَهَا فِي الْأَرْضِ كَالْأَوْتَادِ لِيُثَبِّتَ قِشْرَتَهَا؛ كَيْ لَا تَمِيدَ وَتَضْطَرِبَ؛ فَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ لَكُمْ مَنْفَعَةً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ، ثُمَّ يَنْتَهِي هَذَا الِانْتِفَاعُ الْمُؤَقَّتُ.(*/٢).

---

(١) «خطبة: آيات الله الكونية» للعلَّامة: محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [ق: ٧].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [النازعات: ٢٧-٣٢].

فَنِعْمَةُ الْأَرْضِ وَتَسْخِيرُهَا وَتَمْهِيدُهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَّرَ اللهُ بِهَا عِبَادَهُ، وَلَفَتَ أَنْظَارَهُمْ إِلَيْهَا، قَالَ -تَعَالَىٰ- فِي سُورَةِ الْمُلْكِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

«هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْأَرْضَ وَذَلَّلَهَا؛ لِتُدْرِكُوا مِنْهَا كُلَّ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ حَاجَتُكُمْ؛ مِنْ غَرْسٍ، وَبِنَاءٍ، وَحَرْثٍ، وَطُرُقٍ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَىٰ الْأَقْطَارِ النَّائِيَةِ وَالْبُلْدَانِ الشَّاسِعَةِ؛ ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أَيْ: لِطَلَبِ الرِّزْقِ وَالْمَكَاسِبِ.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ أَيْ: بَعْدَ أَنْ تَنْتَقِلُوا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ امْتِحَانًا، وَبُلْغَةً يُتَبَلَّغُ بِهَا إِلَىٰ الدَّارِ الْآخِرَةِ.. تُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ اللهِ؛ لِيُجَازِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ»(١).(*).

اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مُنْقَادَةً سَهْلَةً مُطَوَّعَةً؛ تَحْرُثُونَهَا، وَتَزْرَعُونَهَا، وَتَسْتَخْرِجُونَ كُنُوزَهَا، وَتَنْتَفِعُونَ مِنْ طَاقَاتِهَا وَخَصَائِصِ عَنَاصِرِهَا؛ فَامْشُوا فِي جَوَانِبِهَا وَأَطْرَافِهَا وَنَوَاحِيهَا مَشْيًا رَفِيقًا لِتَحْصِيلِ مَطَالِبِ الْحَيَاةِ، وَكُلُوا مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ، وَاكْتَسِبُوا الرِّزْقَ مِمَّا أَحَلَّ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَكُمْ، وَتَذَكَّرُوا يَوْمَ الْحِسَابِ، وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ تُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الْجَزَاءِ.(*/٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٣٤) للعلَّامة السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «تَفْسِيرُ الْعَلَّامَةِ السَّعْدِيِّ» - الثُّلَاثَاءُ ١١ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣١هـ| ٢٦-١-٢٠١٠م.

(*/ ٢) مَا مَرَّ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الملك: ١٥].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٤٨].

وَبَسَطْنَا الْأَرْضَ وَمَهَّدْنَاهَا لَكُمْ؛ فَنِعْمَ الْمُسَوُّونَ الْمُصْلِحُونَ لِهَذِهِ الْمُنْبَسَطَاتِ مِنَ الْأَرْضِ؛ عِنَايَةً مِنَّا لِمَصَالِحِ النَّاسِ.(*).

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦].

«هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنِ اسْتَمَرَّ فِي طُغْيَانِهِ وَتَعَدِّيهِ وَعِصْيَانِهِ الْمُوجِبِ لِلنَّكَالِ وَحُلُولِ الْعُقُوبَةِ، فَقَالَ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وَهُوَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الْعَالِي عَلَىٰ خَلْقِهِ ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ بِكُمْ وَتَضْطَرِبُ حَتَّىٰ تَهْلِكُوا وَتَتْلَفُوا»(٢).

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَظِيمَةِ: أَنْ جَعَلَ فِي الْأَرْضِ قِطَعًا مُتَجَاوِرَاتٍ مُخْتَلِفَةً فِي ذَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَمَنَافِعِهَا، وَفِي الْأَرْضِ مِنْ بَدِيعِ صُنْعِ اللهِ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤].

وَفِي الْأَرْضِ بِقَاعٌ مُتَقَارِبَاتٌ مُتَلَاصِقَاتٌ مُخْتَلِفَةُ الطِّبَاعِ وَالصِّفَاتِ، وَفِيهَا بَسَاتِينُ مِنْ أَعْنَابٍ، وَفِيهَا زَرْعٌ مُخْتَلِفُ الْأَصْنَافِ وَالطُّعُومِ وَالْخَصَائِصِ،

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الذاريات: ٤٨].

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٣٤).

وَنَخْلَاتٌ يَجْتَمِعْنَ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَنَخْلَاتٌ مُنْفَرِدَاتٌ بِأَصْلِهَا، تُسْقَىٰ أَشْجَارُ الْبَسَاتِينِ وَزُرُوعُهَا بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الطَّعْمِ وَالْفَائِدَةِ وَكَمِّيَّةِ الْغِذَاءِ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعَلَامَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْتَعْمِلُونَ عُقُولَهُمُ الَّتِي وَهَبَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا فِي التَّأَمُّلِ، وَالْبَحْثِ عَنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل: ١٠-١١].

وَاللهُ الَّذِي خَلَقَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ، وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً حُلْوًا طَهُورًا نَافِعًا، لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَرَابٌ تَشْرَبُونَهُ، وَلَكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَجَرٌ يَكُونُ الْمَاءُ سَبَبًا فِي نَبَاتِهِ وَنَمَائِهِ، فَأَنْتُمْ فِيهِ تُطْلِقُونَ أَنْعَامَكُمُ السَّائِمَةَ تَرْعَىٰ مِنْ أَشْجَارِ الْأَرْضِ وَنَبَاتِهَا.

يُنْبِتُ اللهُ لَكُمْ بِذَلِكَ الْمَاءِ الْحَبَّ الَّذِي يُقْتَاتُ بِهِ، وَالزَّيْتُونَ، وَالنَّخِيلَ، وَالْأَعْنَابَ، وَمِنْ سَائِرِ الثَّمَرَاتِ.

إِنَّ فِي ظَاهِرَةِ الْمَطَرِ وَمَا فِيهِ مِنْ شَرَابٍ لِلنَّاسِ وَإِنْبَاتِ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ لَعَلَامَةً دَالَّةً عَلَىٰ قُدْرَتِنَا، وَشُمُولِ عِلْمِنَا، وَعَظِيمِ حِكْمَتِنَا لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فِي دَلَائِلِ قُدْرَتِنَا، وَعَظِيمِ نِعَمِنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا.(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [النحل: ١٠-
=

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١].

«﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾ أَيْ: بَسَاتِينَ فِيهَا أَنْوَاعُ الْأَشْجَارِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالنَّبَاتَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾ أَيْ: بَعْضُ تِلْكَ الْجَنَّاتِ مَجْعُولٌ لَهَا عَرِيشٌ تَنْتَشِرُ عَلَيْهِ الْأَشْجَارُ، وَيُعَاوِنُهَا فِي النُّهُوضِ عَنِ الْأَرْضِ، وَبَعْضُهَا خَالٍ مِنَ الْعُرُوشِ، تَنْبُتُ عَلَىٰ سَاقٍ، أَوْ تَنْفَرِشُ فِي الْأَرْضِ، وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَىٰ كَثْرَةِ مَنَافِعِهَا وَخَيْرَاتِهَا، وَأَنَّهُ -تَعَالَىٰ- عَلَّمَ الْعِبَادَ كَيْفَ يَعْرِشُونَهَا وَيُنَمُّونَهَا.

وَأَنْشَأَ تَعَالَىٰ النَّخْلَ ﴿وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أَيْ: كُلُّهُ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ، وَيُفَضِّلُ اللهُ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ.

وَخَصَّ -تَعَالَىٰ- النَّخْلَ وَالزَّرْعَ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ؛ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهَا، وَلِكَوْنِهَا هِيَ الْقُوتَ لِأَكْثَرِ الْخَلْقِ.

وَأَنْشَأَ -تَعَالَىٰ- الزَّيْتُونَ ﴿وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ فِي شَجَرِهِ، وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ فِي ثَمَرِهِ وَطَعْمِهِ؛ كَأَنَّهُ قِيلَ: لِأَيِّ شَيْءٍ أَنْشَأَ اللهُ هَذِهِ الْجَنَّاتِ وَمَا عَطَفَ عَلَيْهَا؟

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْشَأَهَا لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، فَقَالَ: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ أَيِ: النَّخْلِ وَالزَّرْعِ إِذَا أَثْمَرَ، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ أَيْ: أَعْطُوا حَقَّ الزَّرْعِ، وَهُوَ

=

.[١١

الزَّكَاةُ ذَاتُ الْأَنْصِبَاءِ الْمُقَدَّرَةِ فِي الشَّرْعِ، أَمَرَهُمْ أَنْ يُعْطُوهَا يَوْمَ حَصَادِهَا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ حَصَادَ الزَّرْعِ بِمَنْزِلَةِ حَوَلَانِ الْحَوْلِ؛ لِأَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ نُفُوسُ الْفُقَرَاءِ، وَيَسْهُلُ -حِينَئِذٍ- إِخْرَاجُهُ عَلَىٰ أَهْلِ الزَّرْعِ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ فِيهَا ظَاهِرًا لِمَنْ أَخْرَجَهَا؛ حَتَّىٰ يَتَمَيَّزَ الْمُخْرِجُ مِمَّنْ لَا يُخْرِجُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ يَعُمُّ النَّهْيَ عَنِ الْإِسْرَافِ فِي الْأَكْلِ، وَهُوَ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ وَالْعَادَةِ، وَأَنْ يَأْكُلَ صَاحِبُ الزَّرْعِ أَكْلًا يَضُرُّ بِالزَّكَاةِ، وَالْإِسْرَافِ فِي إِخْرَاجِ حَقِّ الزَّرْعِ بِحَيْثُ يُخْرِجُ فَوْقَ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ، وَيَضُرُّ نَفْسَهُ، أَوْ عَائِلَتَهُ، أَوْ غُرَمَاءَهُ؛ فَكُلُّ هَذَا مِنَ الْإِسْرَافِ الَّذِي نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ، الَّذِي لَا يُحِبُّهُ اللهُ، بَلْ يَبْغَضُهُ وَيَمْقُتُ عَلَيْهِ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُوبِ الزَّكَاةِ فِي الثِّمَارِ، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ لَهَا، بَلْ حَوْلُهَا حَصَادُهَا فِي الزُّرُوعِ، وَجِذَاذُ النَّخِيلِ، وَأَنَّهُ لَا تتكَرَّرُ فِيهَا الزَّكَاةُ لَوْ مَكَثَتْ عِنْدَ الْعَبْدِ أَحْوَالًا كَثِيرَةً إِذَا كَانَتْ لِغَيْرِ التِّجَارَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْ بِالْإِخْرَاجِ مِنْهُ إِلَّا وَقْتَ حَصَادِهِ.

وَأَنَّهُ لَوْ أَصَابَتْهَا آفَةٌ قَبْلَ ذَلِكَ بِغَيْرِ تَفْرِيطٍ مِنْ صَاحِبِ الزَّرْعِ وَالثَّمَرِ؛ أَنَّهُ لَا يَضْمَنُهَا، وَأَنَّهُ يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنَ النَّخْلِ وَالزَّرْعِ قَبْلَ إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَا يُحْسَبُ ذَلِكَ مِنَ الزَّكَاةِ، بَلْ يُزَكِّي الْمَالَ الَّذِي يَبْقَىٰ بَعْدَهُ.

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَبْعَثُ خَارِصًا[1] يَخْرُصُ لِلنَّاسِ ثِمَارَهُمْ، وَيَأْمُرُهُ أَنْ

(١) الخارص: الحازر للشيء بالظن والتقدير دون وزن، والخَرْصُ: حَزْرُ ما علىٰ النَّخلِ مِنَ

يَدَعَ لِأَهْلِهَا الثُّلُثَ، أَوِ الرُّبُعَ، بِحَسْبِ مَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الْأَكْلِ وَغَيْرِهِ، مِنْ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ»(١).

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ أَلْوَانِ الزَّرْعِ وَأَشْكَالِهِ وَطُعُومِهِ عِبَرًا وَآيَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَسِعَةِ إِحْسَانِهِ وَجُودِهِ، وَكَمَالِ اقْتِدَارِهِ وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، يَقُولُ اللهُ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩].

اللهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْمَطَرَ مِنَ السَّحَابِ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ كُلَّ شَيْءٍ يَنْبُتُ وَيَنْمُو مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ النَّبَاتَاتِ، فَأَخْرَجْنَا مِنَ النَّبَاتِ زَرْعًا غَضًّا أَخْضَرَ، نُخْرِجُ مِنَ الْخَضِرِ سَنَابِلَ فِيهَا الْحَبُّ يَرْكَبُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ؛ كَالْقَمْحِ، وَالشَّعِيرِ، وَسَائِرِ الْحُبُوبِ، وَنُخْرِجُ مِنْ طَلْعِ النَّخْلِ -وَهُوَ أَوَّلُ مَا يَبْدُو وَيَخْرُجُ مِنْ ثَمَرِ النَّخْلِ-؛ نُخْرِجُ مِنْ طَلْعِ النَّخْلِ عُذُوقًا قَرِيبَةَ التَّنَاوُلِ، وَأَخْرَجْنَا مِنْ ذَلِكَ الْخَضِرِ بَسَاتِينَ مِنْ أَشْجَارِ أَعْنَابٍ، وَأَخْرَجْنَا شَجَرَ الزَّيْتُونِ وَشَجَرَ الرُّمَّانِ وَثِمَارَهُمَا، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مُخْتَلِفَاتٍ مُشْتَبِهَةِ الصِّفَاتِ وَالْخَصَائِصِ وَالطُّعُومِ وَالْأَلْوَانِ، وَهَذَا فِي أَصْنَافِ النَّوْعِ الْوَاحِدِ؛ كَأَصْنَافِ الزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ، وَمُخْتَلِفَاتٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ مُتَشَابِهَةٍ فِي خَصَائِصِهَا وَطُعُومِهَا وَأَلْوَانِهَا.

=

الرُّطَبِ تَمرًا، فيقدَّرُ ما عليه رُطَبًا ويقدَّر ما يَنقُصُ لو صار تمرًا، ثم يُعتدُّ بما بَقِيَ بعد النَّقصِ.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٣٠٩).

انْظُرُوا -أَيُّهَا النَّاسُ- نَظَرَ اسْتِدْلَالٍ وَاسْتِبْصَارٍ إِلَىٰ ثَمَرِهِ أَوَّلَ مَا يَخْرُجُ ضَعِيفًا لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ، وَانْظُرُوا إِلَىٰ حَالِ نُضْجِهِ وَإِدْرَاكِهِ.. كَيْفَ يَعُودُ شَيْئًا قَوِيًّا بَعْدَ الضَّعْفِ جَامِعًا لِمَنَافِعَ شَتَّىٰ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ الَّذِي نَبَّهَ إِلَيْهِ -سُبْحَانَهُ- مِنْ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ لَعَلَامَاتٍ جَلِيَّاتٍ لِقَوْمٍ لَدَيْهِمْ الِاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا.(*).

وَمِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ: نُزُولُ الْمَطَرِ، الْمَطَرِ الَّذِي أَحْيَا اللهُ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ؛ فَنِعْمَةُ الْمَاءِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ جَلَّوَعَلَا بِهَا عَلَيْنَا نِعْمَةٌ جَلِيلَةٌ مِنْ أَجَلِّ نِعَمِ اللهِ.(*/٢).

قَالَ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ [النحل: ١٠].

اللهُ الَّذِي خَلَقَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً حُلْوًا طَهُورًا نَافِعًا، لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ شَرَابٌ تَشْرَبُونَهُ.(*/٣).

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِذَلِكَ الْمَاءِ الْمُخْتَلِطِ بِتُرَابِ الْأَرْضِ؛ أَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ، وَذَلَّلَ لَكُمُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» [الأنعام: ٩٩].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَة: «هَلْ يَجِفُّ النَّهْرُ حَقًّا؟!!» - الْجُمُعَةُ ١٤ مِنْ جُمَادَىٰ الْآخِرَة ١٤٣١هـ| ٢٨-٥-٢٠١٠م.

(*/ ٣) مَا مَرَّ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النحل: ١٠].

السُّفُنَ الْجَارِيَةَ عَلَىٰ الْمَاءِ وَفْقَ نِظَامِ الطَّفْوِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ فِي كَوْنِهِ؛ لِأَجْلِ الِانْتِفَاعِ بِهَا فِي جَلْبِ الرِّزْقِ مِنْ بَلَدٍ لِآخَرَ.

وَذَلَّلَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ تَشْرَبُونَ مِنْهَا، وَتَسْقُونَ زَرْعَكُمْ، وَأَشْجَارَكُمْ، وَأَنْعَامَكُمْ، وَدَوَابَّكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ أُخْرَىٰ.(*).

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]: وَأَنْزَلْنَا الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَخْرَجْنَا النَّبَاتَ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَحْيَيْنَا بِالْمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِعِ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ.(*/٢).

وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ [الحج: ٥].

وَتَرَىٰ -أَيُّهَا النَّاظِرُ الْمُتَأَمِّلُ- بِدَوَامٍ وَتَجَدُّدٍ الْأَرْضَ يَابِسَةً مَيِّتَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَطَرَ تَحَرَّكَ تُرَابُهَا لِأَجْلِ خُرُوجِ النَّبَاتِ، وَانْتَفَخَتْ بِسَبَبِ نُمُوِّ النَّبَاتِ وَتَدَاخُلِ الْمَاءِ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ حَسَنٍ جَمِيلِ الْمَنْظَرِ.(*/٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣﴾ [الحج: ٦٣].

أَلَمْ تَرَ -أَيُّهَا الْعَاقِلُ الْبَصِيرُ الرَّشِيدُ- نَاظِرًا إِلَىٰ آثَارِ صُنْعِ رَبِّكَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [إبراهيم: ٣٢].

(*/ ٢) مَا مَرَّ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الأنبياء: ٣٠].

(*/ ٣) مَا مَرَّ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الحج: ٥].

مِنَ السَّحَابِ مَاءً عَلَىٰ أَرْضٍ صَالِحَةٍ لِلْإِنْبَاتِ، فِيهَا بُذُورُ نَبَاتَاتٍ مُنْبَثَّاتٍ فِي تُرْبَتِهَا، فَامْتَصَّتِ الْبُذُورُ الْمُنْبَثَّةُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمَاءِ وَمِنْ عَنَاصِرِ تُرَابِ الْأَرْضِ، فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ إِثْرَ نُزُولِ الْمَطَرِ مُخْضَرَّةً بِالنَّبَاتِ الْمُخْتَلِفِ الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ.

إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ بِاسْتِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَالْحَيَوَانِ، يَنْفُذُ بِصِفَاتِهِ إِلَىٰ أَعْمَاقِ كُلِّ مَوْجُودٍ خَلْقًا وَإِمْدَادًا، وَعِلْمًا وَتَصَارِيفَ، خَبِيرٌ عَلَىٰ سَبِيلِ الشُّهُودِ بِمَا فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ إِذَا تَأَخَّرَ الْمَطَرُ عَنْهُمْ.(*).

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ الْعَظِيمَةِ: خَلْقُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **الْأَنْعَامَ، وَتَسْخِيرُهَا لِلْإِنْسَانِ، وَتَمْلِيكُهُ أَمْرَهَا، قَالَ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣].

«يَأْمُرُ -تَعَالَىٰ- الْعِبَادَ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ مَا سَخَّرَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَذَلَّلَهَا، وَجَعَلَهُمْ مَالِكِينَ لَهَا، مُطَاوِعَةً لَهُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُرِيدُونَهُ مِنْهَا، وَأَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةً؛ مِنْ حَمْلِهِمْ وَحَمْلِ أَثْقَالِهِمْ وَمَحَامِلِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ مِنْ مَحَلٍّ إِلَىٰ مَحَلٍّ، وَمِنْ أَكْلِهِمْ مِنْهَا، وَفِيهَا دِفْءٌ، وَمِنْ أَوْبَارِهَا وَأَصْوَافِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ، وَفِيهَا زِينَةٌ وَجَمَالٌ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ الْمُشَاهَدَةِ مِنْهَا.

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ اللهَ -تَعَالَىٰ- الَّذِي أَنْعَمَ بِهَذِهِ النِّعَمِ، وَيُخْلِصُونَ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَلَا يَتَمَتَّعُونَ بِهَا تَمَتُّعًا خَالِيًا مِنَ الْعِبْرَةِ وَالْفِكْرَةِ؟!!»(٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -[الحج: ٦٣].

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٨٢١).

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ -تَعَالَى-: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي تَعَاقُبِهِمَا عَلَى الْعِبَادِ، يَطُولُ هَذَا تَارَةً وَيَقْصُرُ أُخْرَى، وَيَتَسَاوَيَانِ، جَعَلَ اللهُ اللَّيْلَ سَكَنًا يَسْكُنُ فِيهِ الْعِبَادُ فَيَنَامُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، وَجَعَلَ النَّهَارَ مَعَاشًا يَبْتَغُونَ فِيهِ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَيَكْسِبُونَ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

يُغَيِّرُ اللهُ أَحْوَالَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَالِابْتِدَاءِ وَالِانْتِهَاءِ؛ بِسَبَبِ حَرَكَةِ الْأَرْضِ حَوْلَ نَفْسِهَا وَحَوْلَ الشَّمْسِ؛ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَدَلَالَةً لِأَهْلِ الْعُقُولِ وَالْبَصَائِرِ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ.(*).

وَقَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

لَا الشَّمْسُ يَصْلُحُ لَهَا وَلَا يَتَيَسَّرُ لَهَا أَنْ تَلْحِقَ وَتَبْلُغَ الْقَمَرَ فَتَبْتَلِعَهُ؛ لِأَنَّ ضَابِطَ الْعَدْلِ الْمُتْقَنِ بَيْنَ الْجَاذِبِيَّاتِ وَالْحَرَكَاتِ يَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَطْغَىٰ مُتَجَاوِزَةً حُدُودَهَا الَّتِي قَدَّرَهَا اللهُ وَقَضَاهَا.

وَلَا اللَّيْلُ يَسْبِقُ زَمَانَ حُدُوثِ النَّهَارِ، وَلَا يَسْبِقُ مَكَانَ حُدُوثِهِ؛ إِذْ كُلَّمَا وُجِدَ النَّهَارُ فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ انْعَدَمَ اللَّيْلُ، فَلَا يَكُونُ لِلَّيْلِ سَبْقٌ لِلنَّهَارِ، لَا فِي الزَّمَانِ وَلَا فِي الْمَكَانِ، كَمَا أَنَّ الظُّلْمَةَ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَغْلِبُ الضَّوْءَ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَفَوَّقَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ وُجُودَ اللَّيْلِ يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ غِيَابِ النَّهَارِ، بَيْنَمَا يَحْدُثُ النَّهَارُ بِمُجَرَّدِ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ بِضَوْئِهَا.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» - [النور: ٤٤].

وَلِكُلِّ نَجْمٍ أَوْ كَوْكَبٍ فَلَكٌ خَاصٌّ بِهِ يَسِيرُ عَلَىٰ خَطِّهِ سَابِحًا، لَا يَتَعَدَّىٰ حُدُودَهُ، وَهُمْ جَمِيعًا يَسْبَحُونَ بِانْتِظَامٍ عَجِيبٍ دُونَ أَنْ تَتَعَارَضَ أَوْ تَتَصَادَمَ؛ ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.(*).

وَمِنْ أَعْظَمِ حِكَمِ تَعَاقُبِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: أَنَّ اللهَ جَعَلَ اللَّيْلَ لِرَاحَةِ الْبَشَرِ، وَالنَّهَارَ لِطَلَبِ الرِّزْقِ، وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ؛ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: ١٠-١٢].

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ سِتْرًا وَغِطَاءً، وَقَطْعًا لِلْحَرَكَةِ، وَتَحْصِيلًا لِلرَّاحَةِ، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ وَقْتًا لِطَلَبِ الْعَيْشِ وَالرِّزْقِ، وَتَحْصِيلِ أَسْبَابِ الْمَعَاشِ وَالْحَيَاةِ.(*/٢).

وَقَالَ رَبُّنَا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [النحل: ١٢].

وَذَلَّلَ اللهُ لَكُمُ اللَّيْلَ لِرَاحَتِكُمْ، وَالنَّهَارَ لِمَعَاشِكُمْ.(*/٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٢-٧٣].

«يَقُولُ -تَعَالَىٰ- ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْقَوْمُ ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ دَائِمًا لَا لَيْلَ مَعَهُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [يس: ٤٠].

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النبأ: ١٠ - ١١].

(*/ ٣) مَا مَرَّ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [النحل: ١٢].

أَبَدًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؛ مَنْ مَعْبُودٌ غَيْرُ الْمَعْبُودِ الَّذِي لَهُ عِبَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ فَتَسْتَقِرُّونَ وَتَهْدَؤُونَ فِيهِ؟!! ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يَقُولُ: أَفَلَا تَرَوْنَ بِأَبْصَارِكُمُ اخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْكُمْ؛ رَحْمَةً مِنَ اللهِ لَكُمْ، وَحُجَّةً مِنْهُ عَلَيْكُمْ، فَتَعْلَمُوا بِذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ، وَلِمَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ الَّتِي خَالَفَ بِهَا بَيْنَ ذَلِكَ؟!!»(١).

«هَذَا امْتِنَانٌ مِنَ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، يَدْعُوهُمْ بِهِ إِلَىٰ شُكْرِهِ، وَالْقِيَامِ بِعُبُودِيَّتِهِ، وَحَقُّهُ أَنَّهُ جَعَلَ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ النَّهَارَ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ، وَيَنْتَشِرُوا لِطَلَبِ أَرْزَاقِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ فِي ضِيَائِهِ، وَاللَّيْلَ لِيَهْدَؤُوا فِيهِ وَيَسْكُنُوا، وَتَسْتَرِيحَ أَبْدَانُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ مِنْ تَعَبِ التَّصَرُّفِ فِي النَّهَارِ، فَهَذَا مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ؛ فَهَلْ أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ؟!!

فَلَوْ جَعَلَ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ؟!! أَفَلا تَسْمَعُونَ مَوَاعِظَ اللهِ وَآيَاتِهِ سَمَاعَ فَهْمٍ وَقَبُولٍ وَانْقِيَادٍ؟!!

وَلَوْ جَعَلَ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ؟!! ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ وَمَوَاضِعَ الْآيَاتِ، فَتَسْتَنِيرُ بَصَائِرُكُمْ، وَتَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ؟!!

وَقَالَ فِي اللَّيْلِ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص:٧١]، وَفِي النَّهَارِ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:٧٢]؛ لِأَنَّ سُلْطَانَ السَّمْعِ فِي اللَّيْلِ أَبْلَغُ مِنْ سُلْطَانِ

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٦١٣).

الْبَصَرِ، وَعَكْسُهُ النَّهَارُ»(١).

وَمِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالدَّلَائِلِ الْبَاهِرَةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ: أَطْوَارُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي جَسَدِهِ مِنْ أَعْضَاءٍ وَخَلَايَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

«ذَكَرَ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ أَطْوَارَ الْآدَمِيِّ وَتَنَقُّلَاتِهِ مِنِ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ إِلَىٰ آخِرِ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ، فَذَكَرَ ابْتِدَاءَ خَلْقِ أَبِي النَّوْعِ الْبَشَرِيِّ آدَمَ عليه السلام، وَأَنَّهُ ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ أَيْ: قَدْ سُلَّتْ وَأُخِذَتْ مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ بَنُوهُ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْضِ، مِنْهُمُ الطَّيِّبُ وَالْخَبِيثُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ أَيْ: جِنْسَ الْآدَمِيِّينَ ﴿نُطْفَةً﴾ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، فَتَسْتَقِرُّ ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وَهُوَ الرَّحِمُ، مَحْفُوظَةً مِنَ الْفَسَادِ وَالرِّيحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ الَّتِي قَدِ اسْتَقَرَّتْ قَبْلُ ﴿عَلَقَةً﴾ أَيْ: دَمًا أَحْمَرَ بَعْدَ مُضِيِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنَ النُّطْفَةِ، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ﴾ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ﴿مُضْغَةً﴾ أَيْ: قِطْعَةَ لَحْمٍ صَغِيرَةً بِقَدْرِ مَا يُمْضَغُ مِنْ صِغَرِهَا، ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ اللَّيِّنَةَ ﴿عِظَٰمًا﴾ صُلْبَةً قَدْ تَخَلَّلَتِ اللَّحْمَ بِحَسَبِ حَاجَةِ الْبَدَنِ إِلَيْهَا، ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٣٠).

أَيْ: جَعَلْنَا اللَّحْمَ كُسْوَةً لِلْعِظَامِ، كَمَا جَعَلْنَا الْعِظَامَ عِمَادًا لِلَّحْمِ، وَذَلِكَ فِي الْأَرْبَعِينَ الثَّالِثَةِ.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ نُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ، فَانْتَقَلَ مِنْ كَوْنِهِ جَمَادًا إِلَىٰ أَنْ صَارَ حَيَوَانًا، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: تَعَالَىٰ وَتَعَاظَمَ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧-٩]؛ فَخَلْقُهُ كُلُّهُ حَسَنٌ، وَالْإِنْسَانُ مِنْ أَحْسَنِ مَخْلُوقَاتِهِ؛ بَلْ هُوَ أَحْسَنُهَا عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين:٤]؛ وَلِهَذَا كَانَ خَوَاصُّهُ أَفْضَلَ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَكْمَلَهَا»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

«يَقُولُ -تَعَالَىٰ- مُعَاتِبًا لِلْإِنْسَانِ الْمُقَصِّرِ فِي حَقِّ رَبِّهِ، الْمُتَجَرِّئِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار:٦]؟! أَتَهَاوُنًا مِنْكَ فِي حُقُوقِهِ؟! أَمِ احْتِقَارًا مِنْكَ لِعَذَابِهِ؟! أَمْ عَدَمَ إِيمَانٍ مِنْكَ بِجَزَائِهِ؟!

أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ؟! فَعَدَلَكَ وَرَكَّبَكَ تَرْكِيبًا قَوِيمًا مُعْتَدِلًا فِي أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ، وَأَجْمَلِ الْهَيْئَاتِ؛ فَهَلْ يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَكْفُرَ نِعْمَةَ الْمُنْعِمِ، أَوْ تَجْحَدَ إِحْسَانَ الْمُحْسِنِ؟!!

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٤١).

إِنْ هَذَا إِلَّا مِنْ جَهْلِكَ، وَظُلْمِكَ، وَعِنَادِكَ، وَغُشْمِكَ؛ فَاحْمَدِ اللهَ أَنْ لَمْ يَجْعَلْ صُورَتَكَ صُورَةَ كَلْبٍ أَوْ حِمَارٍ، أَوْ نَحْوِهِمَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ؛ فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٨]»(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

«وَفِي أَنْفُسِكُمْ دَلَائِلُ عَلَىٰ قُدْرَةِ اللهِ -تَعَالَىٰ-، وَعِبَرٌ تَدُلُّكُمْ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ خَالِقِكُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ لَكُمْ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ؛ أَغَفَلْتُمْ عَنْهَا فَلَا تُبْصِرُونَ ذَلِكَ فَتَعْتَبِرُونَ بِهِ؟!!»(٢).

«**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:** ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧﴾ [يس: ٧٧].

﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾ [الطارق: ٥-٦]، وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي يُنَبِّهُ اللهُ فِيهَا الْإِنْسَانَ عَلَىٰ التَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ فِي ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ وَتَطَوُّرِهِ، وَكَيْفَ تَنَقَّلَتْ بِهِ الْأَحْوَالُ مِنَ النُّطْفَةِ إِلَىٰ أَنْ صَارَ إِنْسَانًا كَامِلًا فِي بَدَنِهِ وَفِي عَقْلِهِ، وَكَيْفَ أَحْسَنَ اللهُ خَلْقَهُ، وَنَظَمَهُ هَذَا النِّظَامَ الْعَجِيبَ، فَوَضَعَ فِيهِ كُلَّ عُضْوٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مَنَافِعِهِ كُلِّهَا، وَوَضَعَ كُلَّ عُضْوٍ فِي مَحَلِّهِ اللَّائِقِ بِهِ الَّذِي لَا يَحْسُنُ وَلَا يَلِيقُ أَنْ يُوضَعَ إِلَّا فِي مَحِلِّهِ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٠٧٨).

(٢) «التفسير الميسر» (ص: ٥٢١).

وَمِنْ آيَاتِهِ الْأُفُقِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ: إِخْبَارُهُ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ سَخَّرَ لِلْإِنْسَانِ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَعَادِنَ الْكَوْنِ وَعَنَاصِرَهُ، ثُمَّ إِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أَخْرَجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ وَآلَاتِ الْعِلْمِ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ»(١). (*).

وَمِنْ آيَاتِ اللهِ ﷻ فِي كَوْنِهِ: دَوْرَةُ الْمَاءِ بَيْنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، دَوْرَةُ الْعَنَاصِرِ اللَّازِمَةِ كُلٌّ مِنْهَا لِاسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ الْأَرْضِ؛ كُلُّ ذَلِكَ أَمْرٌ مَعْرُوفٌ، أَوْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَعْرُوفًا، فَالْأُكْسِجِينُ وَالْكَرْبُونُ -مَثَلًا- اللَّازِمَانِ لِتَنَفُّسِ وَتَغَذِّي الْأَحْيَاءِ، وَلِلْوَقُودِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ.. يَتَحَوَّلَانِ تَدْرِيجِيًّا إِلَىٰ ثَانِي أُكْسِيدِ الْكَرْبُون الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَالَّذِي يَضُرُّ إِذَا زَادَتْ نِسْبَتُهُ فِي الْجَوِّ إِلَىٰ نَحْوِ بِضْعَةِ أَجْزَاءٍ عَلَىٰ الْعَشْرَةِ آلَافٍ، فَلَوْ زَادَ عَنْ هَذِهِ النِّسْبَةِ أَضَرَّ الْأَحْيَاءَ.

فَلَوْ لَمْ يَتَجَدَّدَا بِحَيَاةِ النَّبَاتِ الَّذِي يُحَلِّلُ ثَانِي أُكْسِيدِ الْكَرْبُون بِخُضْرَةِ وَرَقِهِ وَضَوْءِ الشَّمْسِ، فَيَتَغَذَّىٰ بِالْكَرْبُون، وَيَنْمُو، وَيَنْفُثُ الْأُكْسِجِينَ، فَكَذَلِكَ يَصْنَعُ النَّبَاتُ، فَيَأْخُذُ ثَانِي أُكْسِيدِ الْكَرْبُونِ الَّذِي يَضُرُّ بِالْإِنْسَانِ، وَالَّذِي يَتَنَفَّسُهُ الْإِنْسَانُ، يَأْخُذُهُ النَّبَاتُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَغَذَّىٰ عَلَىٰ الْكَرْبُونِ الَّذِي فِيهِ، وَيَنْفُثُ لَنَا نَحْنُ الْأُكْسِجِينَ فِي الْهَوَاءِ لِلْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ يَتَنَفَّسَانِهِ.

---

(١) «**الدَّلَائِلِ الْقُرْآنِيَّةِ**» ضمن مجموع مؤلفات السعدي: (٣/ ٤٧٥-٤٧٦)، باختصار وتصرف.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ -بِاخْتِصَارٍ وَتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ- مِن: «شَرْحِ الدَّلَائِلِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي أَنَّ الْعُلُومَ وَالْأَعْمَالَ النَّافِعَةَ الْعَصْرِيَّةَ دَاخِلَةٌ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ» (الْمُحَاضَرَةُ الْأُولَىٰ)، السَّبْتُ ١٤ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ١٤٣٤هـ| ١٩-١٠-٢٠١٣م.

إِذَنْ؛ لَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَفِدَ الْأُكْسِجِينُ مِنَ الْهَوَاءِ، وَبَطَلَ الِانْتِفَاعُ بِمُرَكَّبَاتِ الْكَرْبُونِ فِي الْغِذَاءِ، وَأَيُّ هَذَيْنِ لَوْ حَدَثَ كَافٍ لِإِيقَافِ الْحَيَاةِ عَلَىٰ الْأَرْضِ.

فَهَذِهِ الدَّوْرَةُ -كَمَا تَرَىٰ- بِقَانُونٍ وَاحِدٍ تَدُلُّ عَلَىٰ قُدْرَةِ الْخَالِقِ جَلَّوَعَلَا، لَا عَلَىٰ وُجُودِهِ فَحَسْبُ؛ بَلْ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ، وَعَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ.(*).

وَمِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ: دَوْرَاتُ حَيَاةِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ؛ لِنَعْلَمْ جَمِيعًا أَنَّ هَذَا الْكَوْنَ عَامِرٌ بِالْكَائِنَاتِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ، وَكُلُّهَا مَرْزُوقٌ مِنْ رِزْقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَهُوَ أَمْرٌ عِنْدَمَا يَتَأَمَّلُ الْمَرْءُ فِيهِ يَكَادُ عَقْلُهُ يَذْهَبُ مِنْهُ.

فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَصَوَّرَ -مَثَلًا- وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكَائِنَاتِ الْبَحَرِيَّةَ الَّتِي تَحْيَا فِي الْبِحَارِ وَالْمُحِيطَاتِ هِيَ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الْكَائِنَاتِ الْبَرِّيَّةِ بِمَا لَا يُقَاسُ، وَكُلُّهَا مَرْزُوقَةٌ، وَلِكُلٍّ مِنْهَا دَوْرَةُ حَيَاةٍ، تُولَدُ بِالْمِيلَادِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ، ثُمَّ تَمْضِي فِي حَيَاتِهَا بِرِزْقٍ؛ مِنْ طَعَامٍ. أَوْ شَرَابٍ، أَوْ تَغْذِيَةٍ، أَوْ نَفَسٍ، أَوْ إِخْرَاجٍ، تَتَكَاثَرُ أَوْ لَا تَتَكَاثَرُ، ثُمَّ يَنْتَهِي أَجَلُهَا عِنْدَ حَدٍّ حَدَّدَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمَسَارِبُهَا فِي الْحَيَاةِ مَحْسُوبَةٌ.(*/٢).

«**وَالْإِبْدَاعُ الْإِلَهِيُّ فِي النَّحْلَةِ**: هَذَا التَّكْوِينُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، فَقَدْ جَعَلَ لَهَا الْبَارِي -سُبْحَانَهُ- مِعِدَتَيْنِ، فَلِلنَّحْلَةِ مَعِدَتَانِ، إِحْدَاهُمَا تَسْتَعْمِلُهَا لِجَمْعِ الْمَوَادِّ الْأَوَّلِيَّةِ الَّتِي تَسْتَخْلِصُهَا مِنْ رَحِيقِ الْأَزْهَارِ، أَوْ تَحْمِلُ بِهَا الْمَاءَ، وَتَنْقُلُهُ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّامِنَةُ: الْأَدِلَّةُ عَلَىٰ وُجُودِ اللهِ ﷻ)، الِاثْنَيْنِ ١٣ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٦-١٢-٢٠١٣م.

(*/٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «قَضِيَّةُ الرِّزْقِ» - الْجُمُعَةُ ١٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٨هـ| ١٧-٢-٢٠١٧.

إِلَىٰ الْخَلِيَّةِ، وَالْمَعِدَةُ الثَّانِيَةُ مُخَصَّصَةٌ لِلطَّعَامِ الَّذِي تَهْضِمُهُ وَتَتَغَذَّىٰ بِهِ.

وَمِنَ الْعَجِيبِ: أَنَّ نَحْلَ كُلِّ خَلِيَّةٍ يَتَعَارَفُ عَلَىٰ رَائِحَةٍ تُمَيِّزُ نَحْلَهَا عَنْ غَيْرِهِ، وَتَسْتَطِيعُ النَّحْلَةُ أَنْ تَعُودَ إِلَىٰ بَيْتِهَا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ.

وَمِنْ عَجَائِبِ هِدَايَةِ النَّحْلِ: أَنَّهُ يَبْنِي جُدْرَانَ الْبُيُوتِ السُّدَاسِيَّةَ مِنَ الشَّمْعِ الْخَالِصِ الَّذِي لَا يَنْفُذُ مِنْهُ الْهَوَاءُ؛ وَلَكِنَّهُ عَنْدَمَا يُغْلِقُ أَبْوَابَ الْبُيُوتِ الَّتِي تَحْوِي يَرَقَاتِ النَّحْلِ؛ يَخْلِطُ الشَّمْعَ بِحُبُوبِ اللِّقَاحِ، وَبِهَذَا يَتَسَرَّبُ الْهَوَاءُ مِنْ خِلَالِ حُبُوبِ اللِّقَاحِ، فَتَبْقَىٰ الْيَرَقَاتُ حَيَّةً، وَلَوْ لَمْ يَهْدِهَا رَبُّهَا إِلَىٰ ذَلِكَ لَمَاتَتِ الْيَرَقَاتُ، وَزَالَ النَّحْلُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ الْبَسِيطَةِ.

وَقَدْ حَدَّثَنَا رَبُّنَا فِيمَا حَدَّثَنَا عَنْهُ مِنْ آيَاتِهِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي تَسْتَدْعِي التَّأَمُّلَ وَالتَّفَكُّرَ إِلَىٰ هِدَايَتِهِ الْعَجِيبَةِ لِلنَّحْلِ؛ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]»(١).(*).

وَهَذَا النَّمْلُ الَّذِي تَرَاهُ مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ كُلُّهُ مَخْلُوقٌ بِخَلْقِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وَبِقُدْرَتِهِ، بَدَأَ بِبِدَايَةٍ مُعَيَّنَةٍ، بِدَايَةِ الْخَلْقِ لَهُ، بِكُلِّ نَمْلَةٍ نَمْلَةٍ مِمَّا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ

---

(١) «**العقيدة في الله**»: (ص ١٢٤-١٢٥)، باختصار يسير.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: دَلِيلُ الْعِنَايَةِ، وَبَيَانُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِدَايَةِ بَعْضِ الْحَيَوَانِ)، الثُّلَاثَاءُ ١٤ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٧-١٢-٢٠١٣م.

جَلَّ وَعَلَا، ثُمَّ تَمْضِي فِي حَيَاتِهَا مَرْزُوقَةً بِرِزْقِهَا، فَتَنْمُو شَيْئًا فَشَيْئًا، تَتَكَاثَرُ أَوْ لَا تَتَكَاثَرُ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا انْتَهَىٰ عُمُرُهَا.

فِي دَوْرَةِ الْحَيَاةِ هَذِهِ حَرَكَةُ حَيَاةٍ وَحَرَكَةٌ فِي الْوُجُودِ، وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مَرْصُودَةٌ مَكْتُوبَةٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، مَا مِنْ شَيْءٍ!(*).

«**ذَكَرَ الْعَلَّامَةُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شِفَاءِ الْعَلِيلِ»**(٢) **بَعْضَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِدَايَاتِ النَّمْلِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ**: «وَهَذَا النَّمْلُ مِنْ أَهْدَىٰ الْحَيَوَانَاتِ، وَهِدَايَتُهَا مِنْ أَعْجَبِ شَيْءٍ؛ فَإِنَّ النَّمْلَةَ الصَّغِيرَةَ تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا، وَتَطْلُبُ قُوتَهَا وَإِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهَا الطَّرِيقُ.

فَإِذَا ظَفِرَتْ بِهِ حَمَلَتْهُ وَسَاقَتْهُ فِي طُرُقٍ مُعْوَجَّةٍ بَعِيدَةٍ ذَاتِ صُعُودٍ وَهُبُوطٍ فِي غَايَةٍ مِنَ التَّوَعُّرِ، حَتَّىٰ تَصِلَ إِلَىٰ بُيُوتِهَا، فَتَخْزِنُ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي وَقْتِ الْإِمْكَانِ.

فَإِذَا خَزَنَتْهَا عَمَدَتْ إِلَىٰ مَا يَنْبُتُ مِنْهَا فَفَلَقَتْهُ فِلْقَتَيْنِ لِئَلَّا يَنْبُتَ، فَإِنْ كَانَ يَنْبُتُ مَعَ فِلْقَةٍ وَاحِدَةٍ -أَيْ: بَعْدَ أَنْ يُفْلَقَ بِاثْنَتَيْنِ-؛ فَإِنَّهَا تَفْلِقُهُ بِأَرْبَعَةٍ، فَإِذَا أَصَابَهُ بَلَلٌ، وَخَافَتْ عَلَيْهِ الْعَفَنَ وَالْفَسَادَ؛ انْتَظَرَتْ بِهِ يَوْمًا ذَا شَمْسٍ، فَخَرَجَتْ بِهِ فَنَشَرَتْهُ عَلَىٰ أَبْوَابِ بُيُوتِهَا، ثُمَّ أَعَادَتْهُ إِلَىٰ بُيُوتِهَا، وَلَا تَتَغَذَّىٰ مِنْهَا نَمْلَةٌ مِمَّا جَمَعَهُ غَيْرُهَا.

وَيَكْفِي فِي هِدَايَةِ النَّمْلِ مَا حَكَاهُ اللهُ -سُبْحَانَهُ- فِي الْقُرْآنِ عَنِ النَّمْلَةِ الَّتِي سَمِعَ سُلَيْمَانُ كَلَامَهَا وَخِطَابَهَا لِأَصْحَابِهَا بِقَوْلِهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «قَضِيَّةُ الرِّزْقِ» - الْجُمُعَةُ ١٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ ١٤٣٨هـ| ١٧-٢-٢٠١٧.

(٢) «**شِفَاء الْعَلِيلِ**»: الباب الرابع عشر، (ص٦٨-٦٩).

﴿يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل:١٨]، فَاسْتَفْتَحَتْ خِطَابَهَا بِالنِّدَاءِ الَّذِي يَسْمَعُهُ مَنْ خَاطَبَتْهُ، ثُمَّ أَتَتْ بِالِاسْمِ الْمُبْهَمِ، ثُمَّ أَتْبَعَتْهُ بِمَا يُثْبِتُهُ مِنِ اسْمِ الْجِنْسِ إِرَادَةً لِلْعُمُومِ، ثُمَّ أَمَرَتْهُمْ بِأَنْ يَدْخُلُوا مَسَاكِنَهُمْ فَيَتَحَصَّنُوا مِنَ الْعَسْكَرِ.

ثُمَّ أَخْبَرَتْ عَنْ سَبَبِ هَذَا الدُّخُولِ، وَهُوَ خَشْيَةُ أَنْ تُصِيبَهُمْ مَعَرَّةُ الْجَيْشِ فَيَحْطِمُهُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ، ثُمَّ اعْتَذَرَتْ عَنْ نَبِيِّ اللهِ وَجُنُودِهِ بِأَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ الْهِدَايَةِ.

وَتَأَمَّلْ كَيْفَ عَظَّمَ اللهُ -سُبْحَانَهُ- شَأْنَ النَّمْلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل:١٧]، ثُمَّ قَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل:١٨].

فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ بِأَجْمَعِهِمْ مَرُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ الْوَادِي، وَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ الْوَادِيَ مَعْرُوفٌ بِالنَّمْلِ؛ كَوَادِي السِّبَاعِ وَنَحْوِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا دَلَّ عَلَىٰ شِدَّةِ فِطْنَةِ هَذِهِ النَّمْلَةِ وَدِقَّةِ مَعْرِفَتِهَا؛ حَيْثُ أَمَرَتْهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مَسَاكِنَهُمُ الْمُخْتَصَّةَ بِهِمْ، فَقَدْ عَرَفَتْ هِيَ وَالنَّمْلُ أَنَّ لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهَا مَسْكَنًا لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِيهِ سِوَاهُمْ.

ثُمَّ قَالَتْ: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل:١٨]، فَجَمَعَتْ بَيْنَ اسْمِهِ وَعَيْنِهِ، وَعَرَّفَتْهُ بِهِمَا، وَعَرَّفَتْ جُنُودَهُ وَقَائِدَهَا، ثُمَّ قَالَتْ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨]، فَكَأَنَّهَا جَمَعَتْ بَيْنَ الِاعْتِذَارِ عَنْ مَضَرَّةِ الْجَيْشِ بِكَوْنِهِمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَبَيْنَ لَوْمِ أُمَّةِ النَّمْلِ حَيْثُ لَمْ يَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ، وَيَدْخُلُوا مَسَاكِنَهُمْ؛ لِذَلِكَ تَبَسَّمَ نَبِيُّ اللهِ سُلَيْمَانُ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا، وَإِنَّهُ لَمَوْضِعُ تَعَجُّبٍ وَتَبَسُّمٍ»(١).

---

(١) «العقيدة في الله»: (ص١٢٧-١٢٨).

هَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا كَانَ لِاسْتِجْلَاءِ بَعْضِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي هَذَا الْخَلْقِ الْإِنْسَانِيِّ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنِ الْحِكْمَةِ، وَأَنَّ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا إِلَّا لِحِكْمَةٍ، فَلَيْسَ فِي هَذَا الْكَوْنِ كُلِّهِ مِنْ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ إِلَّا عَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الْحِكْمَةِ خُلِقَ، وَعَلَىٰ مُقْتَضَىٰ الْعِلْمِ وُجِدَ، وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ ﷻ الْقَادِرُ الْقَدِيرُ الْمُقْتَدِرُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.(*).

فَإِذَا مَا تَنَزَّلْتَ إِلَىٰ الْكَائِنَاتِ الدُّنْيَا، وَأَخَذْتَ الْفَيْرُوسَات -مَثَلًا-، وَمِنَ الْفَيْرُوسَاتِ مَا لَا يُرَىٰ بِالْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ تَحْتَ الْمِجْهَرِ إِلَّا بِتَكْبِيرِهِ بِرُبُعِ مِلْيُون مَرَّةٍ -بِمِائَتَيْ وَخَمْسِينَ أَلْفَ مَرَّةً- مِنْ أَجْلِ أَنْ يُرَىٰ هَذَا الْفَيْرُوس الَّذِي يَفْعَلُ فِي النَّاسِ مَا تَعْلَمُونَ، كَـ (**فَيْرُوس سِي**) -مَثَلًا- فِي إِصَابَةِ الْكَبِدِ، فَهَذَا لَا يُرَىٰ إِلَّا مُكَبَّرًا بِرُبُعِ مِلْيُون مَرَّةٍ.

وَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَدَأَهُ وَبَدَأَ خَلْقَهُ فِي وَقْتٍ حَدَّدَهُ، وَجَعَلَ لَهُ دَوْرَةَ حَيَاةٍ، يُصِيبُ الْخَلِيَّةَ الْفُلَانِيَّةَ مِنَ الْكَبِدِ فِي وَقْتٍ يُحَدِّدُهُ اللهُ، وَبِطَرِيقَةٍ يَدْخُلُ بِهَا إِلَىٰ الْجَسَدِ، وَلَهُ تَغْذِيَتُهُ، وَلَهُ إِخْرَاجُهُ، وَلَهُ دَوْرَةُ حَيَاتِهِ بِتَكَاثُرِهِ، وَبِإِصَابَتِهِ لِمَا يُصِيبُهُ مِنْ تِلْكَ الْخَلَايَا فِي الْكَبِدِ الْإِنْسَانِيِّ مُدَمِّرًا أَوْ غَيْرَ مُدَمِّرٍ، ثُمَّ يَمْضِي فِي حَيَاتِهِ إِلَىٰ نِهَايَتِهَا بِأَعْدَادٍ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِعَيْنِ الرِّعَايَةِ مَرْصُودٌ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَصِلُ رِزْقُهُ، وَيَمْضِي عَلَيْهِ أَجَلُهُ، وَكَذَلِكَ الْكَائِنُ الْإِنْسَانِيُّ.(*/٢).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: دَلِيلُ الْعِنَايَةِ، وَبَيَانُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِدَايَةِ بَعْضِ الْحَيَوَانِ)، الثُّلَاثَاءُ ١٤ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٧-١٢-٢٠١٣م.

(*/٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَة: «قَضِيَّةُ الرِّزْقِ» - الْجُمُعَةُ ١٣ مِنْ جُمَادَىٰ الْأُولَىٰ=

فَتَأَمَّلْ فِي كُلِّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ ذَرَّاتٍ وَعَنَاصِرَ، وَنُظُمٍ وَقَوَانِينَ وَنَوَامِيسَ، وَنِسَبٍ وَرَوَابِطَ وَعَلَائِقَ، وَأَقْدَارٍ وَأَحْجَامٍ وَأَوْزَانٍ، وَمُدَدٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَزْمَانٍ، وَصُوَرٍ وَأَشْكَالٍ وَأَلْوَانٍ، وَحَرَكَاتٍ وَسَكَنَاتٍ وَأَوْضَاعٍ، وَأَجْنَاسٍ وَأَصْنَافٍ وَأَنْوَاعٍ.

وَتَعَالَ فَتَصَوَّرْ عَدَدَ مَا فِي الْعَالَمِ -عَالَمِ الْخَلْقِ- مِنْ شَيْءٍ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الذَّرَّةِ إِلَىٰ الْمَجَرَّةِ، وَتَصَوَّرْ عَدَدَ مَا يَرْبِطُ بَيْنَهَا فِي عَالَمِ الْأَمْرِ مِنْ رَوَابِطَ وَعَلَائِقَ عَلَىٰ اخْتِلَافِ النَّوَامِيسِ وَالْأَقْدَارِ وَالْمُدَدِ، وَالْأَشْكَالِ وَالْحَرَكَاتِ وَالْأَوْضَاعِ، ثُمَّ تَعَالَ نَدْرُسْ فِي ضَوْءِ الْعِلْمِ وَالْقُرْآنِ بَعْضَ مَا فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ تَقْدِيرٍ وَاتِّزَانٍ، وَتَنْظِيمٍ وَتَرْتِيبٍ، وَإِحْكَامٍ وَإِتْقَانٍ.

* **مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ:** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان:٢].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد:٨].

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر:١٩].

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر:٢١].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون:١٨].

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٨٨].

=

١٤٣٨هـ| ١٧-٢-٢٠١٧.

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السجدة:٧].

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ٤﴾ [التين:٤].

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ ﴾ [الملك:٣].

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس:١٠١].

﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف:١٠٥].

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت:٥٣].

هَذَا بَعْضُ كَلَامِ اللهِ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، سَلِيلِ الْقَبِيلَةِ الْأُمِّيَّةِ، وَرَبِيبِ الْبِيئَةِ الْأُمِّيَّةِ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ.(*).

عِبَادَ اللهِ، إِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مِنْ آيَاتِ اللهِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَهُوَ الْمُدَبِّرُ لَهُ، فَالْكَوْنُ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ، وَلَمْ يَخْلُقْهُ أَحَدٌ سِوَى اللهِ ﷻ، قَالَ اللهُ -تَعَالَى- مُبَرْهِنًا عَلَى ذَلِكَ: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

«﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ [الطور:٣٥]: وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ عَلَيْهِمْ بِأَمْرٍ لَا يُمْكِنُهُمْ فِيهِ إِلَّا التَّسْلِيمُ لِلْحَقِّ، أَوِ الْخُرُوجُ عَنْ مُوجَبِ الْعَقْلِ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الرَّابِعَةُ: مِنَ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَىٰ وُجُودِ الْخَالِقِ)، السَّبْتُ ١١ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٤-١٢-٢٠١٣م.

وَالدِّينِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ مُنْكِرُونَ لِتَوْحِيدِ اللهِ، مُكَذِّبُونَ لِرَسُولِهِ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِإِنْكَارِ أَنَّ اللهَ خَلَقَهُمْ.

وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْعَقْلِ مَعَ الشَّرْعِ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ:

إِمَّا أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، أَيْ: لَا خَالِقَ خَلَقَهُمْ، بَلْ وُجِدُوا مِنْ غَيْرِ إِيجَادٍ وَلَا مُوجِدٍ، وَهَذَا عَيْنُ الْمُحَالِ.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ؟! وَهَذَا -أَيْضًا- مُحَالٌ؛ فَإِنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُوجِدُوا أَنْفُسَهُمْ.

فَإِذَا بَطَلَ هَذَانِ الْأَمْرَانِ، وَبَانَ اسْتِحَالَتُهُمَا؛ تَعَيَّنَ الْقِسْمُ الثَّالِثُ: أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ.

وَإِذَا تَعَيَّنَ ذَلِكَ؛ عُلِمَ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- هُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ، الَّذِي لَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ -تَعَالَىٰ-.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الطور:٣٦]: وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ يَدُلُّ عَلَىٰ تَقْرِيرِ النَّفْيِ؛ أَيْ: مَا خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَيَكُونُوا شُرَكَاءَ لِلَّهِ، وَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ جِدًّا، بَلِ الْمُكَذِّبُونَ لا يُوقِنُونَ؛ أَيْ: لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ تَامٌّ وَيَقِينٌ يُوجِبُ لَهُمُ الِانْتِفَاعَ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ»[1].

❀❀❀

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٩٦٣).

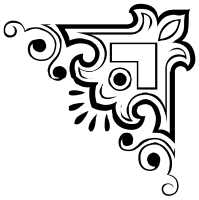

دَلَالَةُ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ

قَالَ اللهُ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

أَخْبَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ آيَاتٍ؛ أَيْ: أَدِلَّةً عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ الْبَارِي وَإِلَهِيَّتِهِ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَسَائِرِ صِفَاتِهِ، وَآيَةً عَلَىٰ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ؛ أَيْ: لَهُمْ عُقُولٌ يُعْمِلُونَهَا فِيمَا خُلِقَتْ لَهُ؛ فَعَلَىٰ حَسَبِ مَا مَنَّ اللهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ مِنَ الْعَقْلِ، وَصَرَّفَهُ فِي التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ؛ يَنْتَفِعُ بِهَا وَيَعْرِفُهَا وَيَعْقِلُهَا بِعَقْلِهِ وَفِكْرِهِ وَتَدَبُّرِهِ.

فَفِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ؛ فِي ارْتِفَاعِهَا، وَاتِّسَاعِهَا، وَإِحْكَامِهَا وَإِتْقَانِهَا، وَمَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَجَرَيَانِهَا بِانْتِظَامٍ عَجِيبٍ لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ.

فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ؛ فِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، وَأَنَّ مَا يَرَاهُ مِمَّا يَبْلُغُهُ بَصَرُهُ وَيُحِيطُ بِهِ نَظَرُهُ إِنَّمَا هُوَ

شَيْءٌ لَا يُوصَفُ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِمَّا جَعَلَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ، فَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ!

وَفِي خَلْقِ الْأَرْضِ، وَجَعْلِهَا مِهَادًا لِلْخَلْقِ يُمْكِنُهُمُ الْقَرَارُ عَلَيْهَا، وَالِانْتِفَاعُ بِمَا عَلَيْهَا وَالِاعْتِبَارُ مَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ انْفِرَادِ اللهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَبَيَانِ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي بِهَا خَلَقَهَا، وَحِكْمَتِهِ الَّتِي بِهَا أَتْقَنَهَا وَأَحْسَنَهَا وَنَظَمَهَا، وَعِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ الَّتِي بِهَا أَوْدَعَ مَا أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ مَنَافِعِ الْخَلْقِ وَمَصَالِحِهِمْ، وَضَرُورَاتِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ أَبْلَغُ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ عَلَىٰ كَمَالِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَأَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ؛ لِانْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَالْقِيَامِ بِشُؤُونِ عِبَادِهِ.

وَفِي اخْتِلَافِ ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: وَهُوَ تَعَاقُبُهُمَا عَلَىٰ الدَّوَامِ، إِذَا ذَهَبَ أَحَدُهُمَا خَلَفَهُ الْآخَرُ، وَفِي اخْتِلَافِهِمَا فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالتَّوَسُّطِ، وَفِي الطُّولِ وَالْقِصَرِ وَالتَّوَسُّطِ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْفُصُولِ الَّتِي بِهَا انْتِظَامُ مَصَالِحِ الْآدَمِيِّينَ وَحَيَوَانَاتِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَالنَّوَابِتِ كُلِّهَا، كُلُّ ذَلِكَ بِتَدْبِيرٍ وَتَسْخِيرٍ تَحَيَّرُ فِي حُسْنِهِ الْعُقُولُ، وَيَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ الرِّجَالُ الْفُحُولُ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ قُدْرَةِ مُصَرِّفِهَا، وَسَعَةِ عِلْمِهِ، وَشُمُولِ حِكْمَتِهِ، وَعُمُومِ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ الشَّامِلِ، وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، يَضْطَرُّ الْعِبَادُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ، وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾: وَهِيَ السُّفُنُ وَالْمَرَاكِبُ وَنَحْوُهَا مِمَّا أَلْهَمَ اللهُ عِبَادَهُ صَنْعَتَهَا، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهَا بِتَيْسِيرِ أَسْبَابِهَا، ثُمَّ سَخَّرَ لَهَا هَذَا الْبَحْرَ الْعَظِيمَ وَالرِّيَاحَ الَّتِي تَحْمِلُهَا بِمَا فِيهَا مِنَ الرِّكَابِ وَالْأَمْوَالِ وَالْبَضَائِعِ الَّتِي هِيَ

مِنْ مَنَافِعِ النَّاسِ، وَبِهَا تَنْتَظِمُ مَعَايِشُهُمْ.

فَمَنِ الَّذِي أَلْهَمَهُمْ صَنْعَتَهَا، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهَا، وَخَلَقَ لَهُمْ مِنَ الْآلَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ مَا بِهِ يَعْمَلُونَهَا؟!!

أَمْ مَنِ الَّذِي سَخَّرَ لَهَا هَذَا الْبَحْرَ تَجْرِي فِيهِ -بِإِذْنِهِ وَتَسْخِيرِهِ- وَالرِّيَاحَ؟!!

أَمْ مَنِ الَّذِي خَلَقَ لِلْمَرَاكِبِ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَةِ وَالْهَوَائِيَّةِ النَّارَ وَالْمَعَادِنَ الْمُتَنَوِّعَةَ الْمُعِينَةَ عَلَىٰ حَمْلِهَا، وَحَمْلِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ الثَّقِيلَةِ جِدًّا؟!!

فَهَلْ هَذِهِ الْأُمُورُ حَصَلَتْ صُدْفَةً وَاتِّفَاقًا؟!!

أَمِ اسْتَقَلَّ بِعَمَلِهَا وَخَلَقَ أَسْبَابَهَا هَذَا الْمَخْلُوقُ الضَّعِيفُ الْعَاجِزُ الَّذِي خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَيْسَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَىٰ شَيْءٍ، ثُمَّ أَعْطَاهُ خَالِقُهُ الْقُدْرَةَ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ؟!!

أَمْ تَقُولُ -وَالْحَقَّ تَقُولُ-: بَلِ الْمُسَخِّرُ لِذَلِكَ الرَّبُّ الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، بَلِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا قَدْ دَانَتْ لِرُبُوبِيَّتِهِ، وَاسْتَكَانَتْ لِعَظَمَتِهِ، وَخَضَعَتْ لِجَبَرُوتِهِ، وَغَايَةُ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ أَنْ جَعَلَهُ اللهُ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا وُجِدَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ الْعِظَامُ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ رَحْمَةِ اللهِ وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ، وَيَدْعُو الْعِبَادَ إِلَىٰ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيُنِيبُوا إِلَيْهِ فِي كُلِّ حَالٍ.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾: وَهُوَ الْمَطَرُ النَّازِلُ مِنَ السَّحَابِ، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فَأَظْهَرَتْ أَنْوَاعَ الْأَقْوَاتِ وَأَصْنَافَ الْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتَاتِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِلْعِبَادِ أَنْ يَعِيشُوا بِدُونِهَا.

أَلَيْسَ ذَلِكَ بُرْهَانًا عَلَىٰ قُدْرَةِ مَنْ أَنْزَلَهُ وَأَخْرَجَ بِهِ مَا أَخْرَجَ، وَعَلَىٰ رَحْمَتِهِ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ، وَشِدَّةِ افْتِقَارِ الْخَلِيقَةِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ، وَهُوَ يَحْدُوهُمْ إِلَىٰ إِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَالْإِنَابَةِ لَهُ، وَالْقِيَامِ بِعُبُودِيَّتِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؟!!

وَكَذَلِكَ هُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ إِحْيَاءِ اللهِ لِلْمَوْتَىٰ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ هَذَا الْبُرْهَانَ عَلَىٰ الْبَعْثِ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ، كَمَا ذَكَرَ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ بُرْهَانًا عَلَىٰ إِعَادَتِهِ، وَكَمَا ذَكَرَ كَمَالَ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَخَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ جَعَلَ لِلْعِبَادِ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا بُرْهَانًا بَيِّنًا عَلَىٰ الْبَعْثِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أَيْ: نَشَرَ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ مِنَ الدَّوَابِّ الْمُتَنَوِّعَةِ، وَسَخَّرَهَا لِلْآدَمِيِّينَ يَنْتَفِعُونَ بِهَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، وَمَعَ هَذَا فَهُوَ قَائِمٌ بِأَرْزَاقِهَا، مُتَكَفِّلٌ بِأَقْوَاتِهَا، فَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا.

وَفِي تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْكَمَالِ الْمُطْلَقِ، فَتَارَةً تَكُونُ بَارِدَةً وَتَارَةً تَكُونُ حَارَّةً وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَجَنُوبًا وَشَمَالًا وَدَبُورًا -أَيْ: غَرْبِيَّةً-، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَتَارَةً تُثِيرُ السَّحَابَ، وَتَارَةً تُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، وَتَارَةً تُلَقِّحُهُ وَتُدِرُّهُ، وَتَارَةً تُمَزِّقُهُ وَتُزِيلُ ضَرَرَهُ، وَتَارَةً تُرْسَلُ بِالرَّحْمَةِ، وَتَارَةً تُرْسَلُ بِالْعَذَابِ، فَمَنِ الَّذِي صَرَّفَهَا هَذَا التَّصْرِيفَ، وَرَتَّبَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَنَافِعِ لِلْعِبَادِ كَثِيرًا إِلَّا الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الرَّحِيمُ اللَّطِيفُ بِعِبَادِهِ، الْمُسْتَحِقُّ لِلْمَحَبَّةِ وَالثَّنَاءِ وَالشُّكْرِ وَالْحَمْدِ مِنَ الْحَقِيقَةِ؟!! وَفِي تَسْخِيرِ السَّحَابِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ عَلَىٰ خِفَّتِهِ وَلَطَافَتِهِ يَحْمِلُ الْمَاءَ الْكَثِيرَ، فَيَسُوقُهُ اللهُ إِلَىٰ حَيْثُ يَشَاءُ، وَيَجْعَلُهُ حَيَاةً لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَيَرْوِي بِهِ التُّلُولَ وَالْوِهَادَ، وَيُنْزِلُهُ عَلَىٰ الْخَلْقِ وَقْتَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، وَيَصْرِفُ عَنْهُمْ ضَرَرَهُ، فَيُنْزِلُهُ رَحْمَةً وَلُطْفًا، وَيَصْرِفُهُ عِنَايَةً وَعَطْفًا.

فَمَا أَعْظَمَ سُلْطَانَهُ وَأَغْزَرَ إِحْسَانَهُ وَأَلْطَف امْتِنَانَهُ!

أَلَيْسَ مِنْ أَقْبَحِ الْقَبِيحِ وَأَظْلَمِ الظُّلْمِ أَنْ يَتَمَتَّعَ الْعِبَادُ بِرِزْقِهِ وَيَعِيشُوا بِبِرِّهِ، وَهُمْ يَسْتَعِينُونَ بِذَلِكَ عَلَىٰ مَسَاخِطِهِ وَمَعَاصِيهِ؟!!

وَمَعَ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِ حِلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَصَفْحِهِ يُوَالِي عَلَيْهِمُ الْإِحْسَانَ، خَيْرُهُ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ الدَّوَامِ نَازِلٌ، وَشَرُّهُمْ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ صَاعِدٍ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ كُلَّمَا تَدَبَّرَ الْعَاقِلُ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَتَغْلْغَلَ فِكْرُهُ فِي بَدَائِعِ الْكَائِنَاتِ؛ عَلِمَ أَنَّهَا خُلِقَتْ لِلْحَقِّ وَبِالْحَقِّ، وَأَنَّهَا صَحَائِفُ آيَاتٍ، وَكُتُبُ بَرَاهِينَ وَدَلَالَاتٍ عَلَىٰ جَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ

الرُّسُلُ مِنَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَنَّهَا مُدَبَّرَاتٌ مُسَخَّرَاتٌ، لَيْسَ لَهَا تَدْبِيرٌ وَلَا اسْتِعْصَاءٌ عَلَىٰ مُدَبِّرِهَا وَمُصَرِّفِهَا، فَتَعْرِفَ أَنَّ الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ وَالسُّفْلِيَّ كُلَّهُمْ إِلَيْهِ مُفْتَقِرُونَ، وَإِلَيْهِ صَامِدُونَ، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ بِالذَّاتِ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ فِي كَلَامِهِ الْهُدَىٰ وَالرَّشَادَ وَإِصْلَاحَ الْعِبَادِ!(*).

❀❀❀

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن: «شَرْحُ تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (الْمُحَاضَرَةُ الثَّانِيَةُ)، الِاثْنَيْنِ ١٧ مِنْ ذِي الْقِعْدَةِ ١٤٣٤هـ| ٢٣-٩-٢٠١٣م.

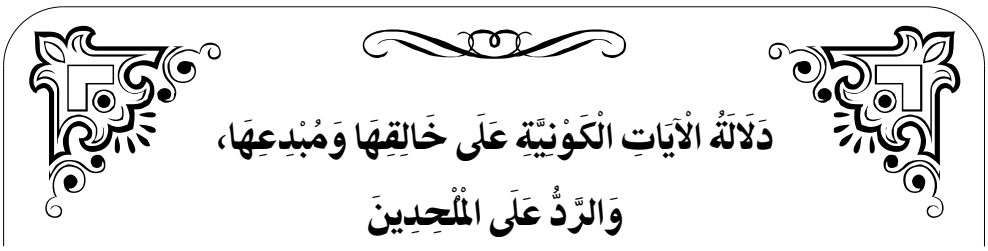

دَلَالَةُ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا، وَالرَّدُّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ

عِبَادَ اللهِ، مَنْهَجُ الْقُرْآنِ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَىٰ وُجُودِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ هُوَ الْمَنْهَجُ الَّذِي تُقِرُّهُ الْفِطْرَةُ، وَيُسَلِّمُ لَهُ الْعَقْلُ، وَيَشْهَدُ بِهِ الْحِسُّ؛ إِلَّا أَنَّ الْمُلْحِدِينَ -كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ- يُنْكِرُونَ أَصْلًا أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مِنْ لَدُنْ رَبِّنَا جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ وُجُودَ الْبَارِي -سُبْحَانَهُ-، وَبِالتَّالِي يُنْكِرُونَ الْوَحْيَ، وَيُنْكِرُونَ الرِّسَالَةَ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُنْكِرُونَ الْجَزَاءَ.

فِي كِتَابِ: «الْعَقِيدَةِ فِي اللهِ»: «يَأْخُذُنَا الْقُرْآنُ فِي جَوْلَاتٍ وَجَوْلَاتٍ نَرْتَادُ آفَاقَ السَّمَاءِ، وَنَجُولُ فِي جَنَبَاتِ الْأَرْضِ، وَيَقِفُ بِنَا عِنْدَ زَهْرَاتِ الْحُقُولِ، وَيَصْعَدُ بِنَا إِلَىٰ النُّجُومِ فِي مَدَارَاتِهَا، وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ يَفْتَحُ أَبْصَارَنا وَبَصَائِرَنَا، فَيُرِيَنَا آثَارَ قُدْرَةِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، وَيَكْشِفُ لَنَا أَسْرَارَ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ، وَيَهدِينَا إِلَىٰ الْحِكْمَةِ مِنَ الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ وَالْإِنْشَاءِ، وَيُبَيِّنُ عَظِيمَ النِّعَمِ الَّتِي حَبَانَا بِهَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي ذَوَاتِ أَنْفُسِنَا، وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِنَا.

هُوَ حَدِيثٌ طَوِيلٌ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا يُطَالِعُنَا فِي طِوَالِ سُوَرِ الْقُرْآنِ وَقِصَارِهِ، وَهُوَ حَدِيثٌ مُشَوِّقٌ تُنْصِتُ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَيَلَذُّهُ السَّمْعُ، وَيَسْتَثِيرُ الْمَشَاعِرَ وَالْأَحَاسِيسَ.

وَإِذَا طَالَعْتَ الْكَثِيرَ مِمَّا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ وَالْعُلَمَاءُ فِي شَتَّىٰ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ، يُبَيِّنُونَ أَسْرَارَ الْخَلْقِ، وَدَلَالَةَ الْخَلْقِ عَلَىٰ الْخَالِقِ؛ إِذَا طَالَعْتَ ذَلِكَ فَلَنْ تَجِدَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا تَجِدُهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ جَمَالِ وَصْفٍ، وَوَفْرَةِ عِلْمٍ، وَاسْتِثَارَةِ مَشَاعِرَ، وَحُسْنِ تَوْجِيهٍ، وَدِقَّةِ اسْتِنْتَاجٍ؛ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَهُوَ تَنْزِيلُ الْحَكِيمِ الْحَمِيدِ؟!!

تَعَالَ فَلْنَقُمْ بِجَوْلَةٍ مَعَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ؛ نَرْتَادُ هَذَا الْكَوْنَ لِيُرِيَنَا كَيْفَ تَعْمَلُ هَذِهِ الْقُدْرَةُ الْعَظِيمَةُ فِي مُخْتَلَفِ أَرْجَاءِ الْكَوْنِ:

فِي الْحَبَّةِ تُلْقَىٰ فِي التُّرْبَةِ الْمُظْلِمَةِ فَتَنْفَلِقُ، وَتَضْرِبُ بِجُذُورِهَا فِي تِلْكَ التُّرْبَةِ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْحَبَّةِ الْجَامِدَةِ حَيَاةٌ تَتَمَثَّلُ فِي سُوقٍ وَأَوْرَاقٍ، وَأَزْهَارٍ تَفُوحُ بِالشَّذَىٰ، وَثِمَارٍ يَتَغَذَّىٰ بِهَا الْإِنْسَانُ وَالْحَيَوَانُ.

وَكَذَلِكَ فِي الْإِصْبَاحِ حِينَ يَنْبَلِجُ، وَفِي سُكُونِ اللَّيْلِ السَّاجِي، وَمَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٥-٩٦].

وَانْظُرْ إِلَىٰ السَّحَابِ؛ كَيْفَ يُنْشِئُهُ اللهُ، وَالبَرْدِ كَيْفَ يُكَوِّنُهُ وَيُصَرِّفُهُ!! ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣].

ويُحَدِّثُنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ فِعْلِهِ فِي الظِّلِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦].

وَانْظُرْ إِلَىٰ تَصْرِيفِهِ -سُبْحَانَهُ- شُؤُونَ الْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

لَا يَكْتَفِي الْقُرْآنُ بِأَنْ يُرِينَا قُدْرَةَ اللهِ وَهِيَ تَعْمَلُ فِي الْكَوْنِ، وَعِلْمَهُ يُحِيطُ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَتَصْرِيفَهُ لِلشُّؤُونِ الْمُخْتَلِفَاتِ؛ وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يُعَرِّفُنَا بِالْغَايَةِ الَّتِي خُلِقَ الْكَوْنُ مِنْ أَجْلِهَا.

خَلَقَ اللهُ هَذِهِ الْأَرْضَ مِنْ أَجْلِ الْإِنْسَانِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

خَلَقَهَا لَنَا عَلَىٰ نَحْوٍ يَتَوَافَقُ مَعَ طَبِيعَتِنَا وَتَكْوِينِنَا، وَيُحَقِّقُ لَنَا الصَّلَاحَ، وَهَذَا مَا سَمَّاهُ الْقُرْآنُ بِالتَّسْخِيرِ.

وَهُوَ لَا يُخْبِرُنَا بِذَلِكَ مُجَرَّدَ إِخْبَارٍ، وَإِنَّمَا يُوقِفُنَا عَلَىٰ هَذَا التَّسْخِيرِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ فِي الْكَوْنِ؛ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

وَالنُّجُومُ خُلِقَتْ لِنَهْتَدِيَ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧].

وَالْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ، وَإِنْزَالُ الْمَاءِ مِنَ السَّحَابِ، وَالسُّفُنُ السَّابِحَةُ فِي الْبِحَارِ، وَالْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ فِي جَنَبَاتِ الْأَرْضِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَتَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.. كُلُّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ لَنَا وَلِخَيْرِنَا وَلِصَلَاحِنَا؛ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤].

عَرَّفَنَا الْقُرْآنُ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَ هَذَا الْكَوْنَ وَسَخَّرَهُ لَنَا، فَجَعَلَهُ مُتَوَافِقًا مَعَ جِبِلَّتِنَا، وَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا تَصْلُحُ بِهِ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ.

وَالْقُرْآنُ يَتَّخِذُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ وَالْبَيَانِ سَبِيلًا لِيَشْكُرَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ؛ إِذِ الْإِنْسَانُ مَفْطُورٌ عَلَىٰ حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ؛ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾؟!

[الرحمن: ٦٠].

وَلِذَلِكَ فَقَدْ أَفَاضَ الْقُرْآنُ فِي ذِكْرِ النِّعَمِ الَّتِي حَبَاهَا اللهُ عِبَادَهُ فِي ذَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ؛ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

[الملك: ٢٣].

وَكَذَلِكَ جَعَلَهَا مَبْثُوثَةً فِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِم؛ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٠-١٣].

وَخَلَقَ لَنَا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ عَلَىٰ نَحْوٍ يُحَقِّقُ النَّفْعَ وَالصَّلَاحَ؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥].

وَالْأَنْعَامُ مِنَ الْجِمَالِ وَالْأَبْقَارِ وَالْأَغْنَامِ، وَكَذَلِكَ خَلَقَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ، خَلَقَهَا لَنَا عَلَىٰ نَحْوٍ يُفِيدُنَا، وَيَتَنَاسَبُ مَعَ طَبَائِعِنَا وَتَكْوِينِنَا؛ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: ٥-٨].

وَالْبَحْرُ مَخْلُوقٌ لَنَا -أَيْضًا-، وَفِي خَلْقِهِ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ مَا يُحَقِّقُ لَنَا الْكَثِيرَ وَالْكَثِيرَ؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤].

وَالنَّحْلُ خَلَقَهُ اللهُ لِيَقُومَ بِذَلِكَ الْعَمَلِ الرَّائِعِ؛ لِيُنْتِجَ لَنَا ذَلِكَ الشَّرَابَ الْمُخْتَلِفَ الْأَلْوَانِ؛ لِيَتَغَذَّىٰ بِهِ الْبَشَرُ، وَيَكُونَ لَهُمْ شِفَاءً؛ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وَقَدْ حَثَّ الْقُرْآنُ عِبَادَ اللهِ عَلَىٰ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ؛ الْأَرْضِ، وَالسَّمَاءِ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا، وَجَعَلَ النَّظَرَ وَالتَّأَمُّلَ فِي ذَلِكَ مِنَ الذِّكْرَىٰ الَّتِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا مَا سُمِّيَ بِـ «قَانُونِ السَّيْرِ وَالنَّظَرِ»؛ لِكَثْرَةِ حَثِّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَقَدْ يَكُونُ السَّيْرُ وَالنَّظَرُ حِسِّيَّانِ، فَيَسِيرُ الْمَرْءُ عَلَىٰ قَدَمَيْهِ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ لِآخَرَ، كَمَا قَدْ يَكُونُ النَّظَرُ بِالْبَصَرِ، وَقَدْ يَكُونَانِ -يَعْنِي: السَّيْرَ وَالنَّظَرَ- بِالْفِكْرِ وَالْعَقْلِ.

وَقَدْ جَاءَ الْأَمْرُ فِي الْقُرْآنِ أَمْرًا عَامًّا؛ ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٠١].

وَقَدْ يَأْتِي أَمْرًا خَاصًّا؛ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق:٥].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس: ٢٤].

وَيَتَّخِذُ الْقُرْآنُ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ مَادَّةً يُنَاقِشُ بِهَا الْمُشْرِكِينَ، وَيُقِيمُ بِهَا الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ

عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٢].

وَيُبَيِّنُ لَهُمْ فَسَادَ مُعْتَقَدَاتِهِمْ فِي مَعْبُودَاتِهِمْ؛ فَهِيَ لَا تَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ لِأَجْلِهَا، وَتُتَّخَذَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ؛ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٥٩-٦٤].

إِنَّ الْآيَاتِ تُبَيِّنُ عَدَمَ صَلَاحِيَةِ الْآلِهَةِ الْمُدَّعَاةِ لِلْعِبَادَةِ وَالتَّقْدِيرِ؛ فَاللهُ وَحْدَهُ الْخَالِقُ لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، الْمُنْزِلُ لِلْمَاءِ مِنَ السَّمَاءِ، الْمُنْبِتُ بِهِ الْحَدَائِقَ الَّتِي تَسُرُّ النَّفْسَ، وَتُبْهِجُ النَّظَرَ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَسَيَّرَ خِلَالَهَا الْأَنْهَارَ، وَثَبَّتَهَا بِالْجِبَالِ؛ فَهُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ، وَغَيْرُهُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا؛ فَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

وَعَلَيْنَا أَنْ نَسْتَخْدِمَ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ فِي مُوَاجَهَةِ الْكَفَرَةِ وَالْمُلْحِدِينَ؛ فَقَدِ اسْتَخْدَمَهُ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلُ، وَأَكْثَرُوا مِنَ الِاحْتِجَاجِ بِهِ؛ فَهَذَا إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يُنَاقِشُ الْمُلْحِدَ، وَيُقِيمُ عَلَيْهِ الْحُجَّةَ بِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ، بِحَيْثُ يَخْرَسُ لِسَانُهُ، وَيَدْهَشُ فِكْرُهُ؛ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وَهَذَا مُوسَىٰ كَلِيمُ اللهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يَسْتَخْدِمُ الِاسْتِدْلَالَ نَفْسَهُ فِي مُوَاجَهَةِ طَاغِيَةِ عَصْرِهِ فِرْعَوْنَ، وَلَا يَزَالُ يَأْتِيهِ بِالدَّلِيلِ فِي إِثْرِ الدَّلِيلِ حَتَّىٰ يُعْجِزَهُ، فَيَلْجَأَ إِلَىٰ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ؛ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٩].

الْكُفْرُ مُسْتَنْكَرٌ مُتَعَجَّبٌ مِنْهُ مَعَ وُضُوحِ الْأَدِلَّةِ؛ لِذَلِكَ يَسْأَلُ الْقُرْآنُ سُؤَالًا يَشِي بِالْعَجَبِ مِنْ كُفْرِ الْكَافِرِينَ مَعَ وُضُوحِ الْأَدِلَّةِ وَالْبَرَاهِينِ؛ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

وَيَسْأَلُ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

إِنَّ مُقْتَضَىٰ نَظَرِ الْإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ وَفِي الْكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ يُوجِبُ عَلَيْهِ التَّوَجُّهَ إِلَىٰ خَالِقِهِ، وَتَعْظِيمَهُ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ غَرِيبًا كُفْرُ الْكَافِرِينَ وَجَحْدُ الْجَاحِدِينَ؛ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح: ١٣-١٨].

وَلَكِنَّ آيَاتِ اللهِ فِي الْكَوْنِ لَا تَتَجَلَّىٰ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا الْمُوحِيَةِ إِلَّا لِلْقُلُوبِ الذَّاكِرَةِ الْعَابِدَةِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ انْكَشَفَتْ عَنْهَا الْحُجُبُ، وَتَفَتَّحَتْ وَاتَّصَلَتْ بِالْكَوْنِ الْعَجِيبِ، فَالْقُرْآنُ أَقَامَ الْوُصْلَةَ بَيْنَ الْقَلْبِ الْبَشَرِيِّ وَمَا فِي هَذَا الْكَوْنِ الْهَائِلِ الْجَمِيلِ، وَهَذِهِ الْوُصْلَةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ لِلنَّظَرِ فِي كِتَابِ الْكَوْنِ وَالتَّعَرُّفِ إِلَيْهِ أَثَرًا فِي هَذَا الْقَلْبِ الْبَشَرِيِّ، وَقِيمَةً فِي الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ.

هَذِهِ هِيَ الْوُصْلَةُ الَّتِي يُقِيمُهَا الْقُرْآنُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ، بَيْنَ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَعْلَمُ وَيَعْرِفُ؛ وَلِذَلِكَ نَصَّ الْقُرْآنُ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِينَ يَهْتَدِي بِآيَاتِ الْكَوْنِ هُمْ صِنْفٌ مُعَيَّنٌ مِنَ النَّاسِ؛ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِآيَاتِ الْكَوْنِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقِفُوا عِنْدَ حُدُودِ الْمَنْظَرِ المَشْهُودِ الْبَادِي لِلْعِيَانِ.

إِنَّهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ أَبْصَارَهُمْ وَأَسْمَاعَهُمْ وَعُقُولَهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ عَلَىٰ خَيْرِ وَجْهٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ، مُسْتَرْشِدِينَ بِآيَاتِ الْكِتَابِ الَّتِي تُعِينُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفِكْرَ وَالْعَقْلَ عَلَىٰ التَّوَصُّلِ إِلَىٰ خَيْرِ مَا يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ؛ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم: ٢١-٢٤].

فَالْآيَاتُ تَتَكَشَّفُ لِلَّذِينَ يَتَفَكَّرُونَ وَيَسْمَعُونَ وَيَعْقِلُونَ؛ أَيْ: عَلَىٰ وَجْهِ الْحَقِيقَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى الْمَطْلُوبِ.

أَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَإِنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ الْحَدَثَ وَلَا يَتَجَاوَزُونَهُ بِعُقُولِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ إِلَىٰ صَانِعِهِ وَخَالِقِهِ، وَلَا يُدْرِكُونَ الْحِكْمَةَ مِنْ وَرَاءِ الْخَلْقِ؛ ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الروم:٧]؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَنظُرُوا إِلَيْهَا بِالْمِنْظَارِ الْقُرْآنِيِّ؛ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١].

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُنْكِرُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ وَالْجَاحِدِينَ تَرْكَهُمُ النَّظَرَ وَالِاعْتِبَارَ؛ ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

إِنَّ الْخَلْقَ يَدُلُّ عَلَىٰ الْخَالِقِ، وَعَلَىٰ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ.

إِذَا نَظَرْنَا إِلَىٰ آلَةٍ دَقِيقَةِ الصُّنْعِ، بَدِيعَةِ التَّكْوِينِ، غَايةٍ فِي الْقُوَّةِ وَالْمَتَانَةِ، تَقُومُ بِعَمَلِهَا عَلَىٰ خَيْرِ وَجْهٍ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ نُدْرِكَ بِلَا كَثِيرِ تَفْكِيرٍ أَنَّ صَانِعَهَا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ الْحَيَاةِ، بِصِفَةِ الْعِلْمِ، وَنُثْبِتُ لَهُ قُدْرَةً وَإِرَادَةً، إِلَىٰ آخِرِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُنْبِئُنَا عَنْهَا تِلْكَ الْآلَةُ، وَهَذَا الْكَوْنُ يَشِي وَيُعَرِّفُ بِكَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

قُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ:

هَذَا الْكَوْنُ الْهَائِلُ الضَّخْمُ الشَّاسِعُ الْوَاسِعُ، السَّائِرُ وَفْقَ نِظَامٍ دَقِيقٍ؛ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ صَانِعُهُ حَيًّا قَدِيرًا عَلِيمًا مُرِيدًا، وَاللهُ خَلَقَ الْخَلْقَ بِهَذَا التَّكْوِينِ الْهَائِلِ، وَهَذَا النِّظَامِ الْكَامِلِ؛ لِيُعَرِّفَنَا بِقُدْرَتِه وَعِلْمِهِ؛ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ الَّذِي يَحْكُمُ هَذَا الْكَوْنَ عِلْمًا شَامِلًا كَامِلًا؛ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

وَهُوَ حَكِيمٌ؛ بَلْ هُوَ الْحَكِيمُ.

فَالنَّظَرُ فِي هَذَا الْكَوْنِ يَشِي(١) بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ مُتْقَنٌ، قَدْ وُضِعَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ فِي مَوْضِعِهِ الْمُنَاسِبِ، وَخُلِقَ بِالْمِقْدَارِ الْمُنَاسِبِ فِي غَايَةِ الْجَوْدَةِ وَالْإِتْقَانِ؛ ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧].

لِذَلِكَ فَإِنَّ النَّاظِرَ الْمُتَبَصِّرَ فِي خَلْقِ اللهِ لَا يَرَىٰ إِلَّا الْكَمَالَ وَالْإِتْقَانَ، وَلَوْ بَحَثَ عَنْ عَيْبٍ فِي الْخَلْقِ مَا وَجَدَهُ؛ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣-٤]»(٢).

مَا ذُكِرَ مِنْ دَلَالَةِ الْخَلْقِ عَلَىٰ بَعْضِ صِفَاتِ خَالِقِهِ يُرَادُ بِهِ التَّمْثِيلُ، لَا الْحَصْرُ وَالِاسْتِقْصَاءُ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ يَفْتَحُ الْبَابَ لِلِاسْتِدْلَالِ وَالْبَحْثِ؛ وَإِلَّا فَفِي الْكَوْنِ الْكَثِيرُ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ عَظَمَةِ اللهِ وَعِزَّتِهِ، وَلُطْفِهِ وَحِكْمَتِهِ.

وَاسْتَمِعْ إِلَىٰ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي خِتَامِ كُلِّ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [الحج:٦٣-٦٥].

---

(١) أي: يعلم ويظهر له.

انظر: «**المحكم**»: (٨/ ١٤١)، مادة: (وشىٰ)، و«**تاج العروس**»: (٤٠/ ٢٠٢-٢٠٤).

(٢) «**العقيدة في الله**»: (ص: ٩٨-١٠٩).

وَتَأَمَّلْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَتَأَمَّلْ فِي التَّعْقِيبِ عَلَيْهَا: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٥-٦].

فَهَذَا مَسْلَكُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَكُلُّ أَحَدٍ عِنْدَهُ تَجْرِبَتُهُ الْخَاصَّةُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِإِجَابَةِ رَبِّهِ إِيَّاهُ، فَمَا مِنْ وَاحِدٍ مِنَّا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ، وَحَتَّىٰ مَنْ كَانَ غَيْرَ مُؤْمِنٍ.. مَا مِنَّا إِلَّا مَنْ مَرَّتْ فَتْرَةٌ فِيهَا شِدَّةٌ، فِيهَا اضْطِرَابٌ، فِيهَا قَلَقٌ، تَوَجَّهَ فِيهَا إِلَىٰ اللهِ بِقَلْبٍ كُلُّهُ انْكِسَارٌ، وَكُلُّهُ رَجَاءٌ وَأَمَلٌ، وَإِذَا بِالْكَرْبِ يَزُولُ، وَالشِّدَّةِ تَنْتَهِي، وَيَجْعَلُ اللهُ مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ يُسْرًا، وَيَعُودُ الرَّخَاءُ بَعْدَ الضَّرَّاءِ؛ وَلَكِنَّكَ تَجِدُ قُلُوبًا بَقِيَتْ شَاكِرَةً مُتَذَكِّرَةً زَادَ إِيمَانُهَا، وَأُخْرَىٰ عَادَتْ إِلَىٰ غَفْلَتِهَا مُتَنَاسِيَةً مَا ذَكَرَتْهُ سَاعَةَ الْمِحْنَةِ.

إِنَّ الْأَمْرَ الْمُسَلَّمَ بِهِ: أَنَّهُ مَا مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَتَلْجَأُ إِلَىٰ اللهِ سَاعَةَ الْخَطَرِ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ كَثِيرًا، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام:٦٣-٦٤].

وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ أَنْ يُجِيبَ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ؛ كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ حَتَّىٰ لَوْ كَانَ كَافِرًا مَا دَامَ تَوَجَّهَ إِلَىٰ اللهِ؛ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢].(*).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: دَلَالَةُ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَىٰ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا)، الْخَمِيسُ ١٦ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٩-١٢-٢٠١٣م.

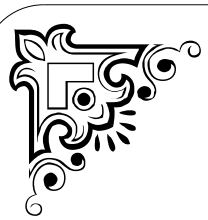

ثَمَرَاتُ التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ

أَيُّهَا الْمُسلِمُونَ، إِنَّ الْخَالِقَ ﷻ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَفَضْلِهِ قَدْ أَظْهَرَ لَنَا آيَاتِهِ فِي كِتَابٍ مَنْظُورٍ نَرَاهُ وَنُحِسُّ بِهِ، وَكِتَابٍ نَقْرَؤُهُ وَنُرَتِّلُهُ؛ أَلَا وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِآيَاتِهِ وَعِظَاتِهِ، الَّذِي يَعْمِدُ إِلَى تَنْبِيهِ الْحَوَاسِّ وَالْمَشَاعِرِ، وَفَتْحِ الْعُيُونِ وَالْقُلُوبِ إِلَى مَا فِي هَذَا الْكَوْنِ الْعَظِيمِ مِنْ مَشَاهِدَ وَآيَاتٍ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «أَمَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِالنَّظَرِ فِي آيَاتِهِ، وَالِاعْتِبَارِ بِمَخْلُوقَاتِهِ فِي أَعْدَادٍ كَثِيرَةٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، أَرَادَ بِذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْيَقِينِ، وَقُوَّةً فِي الْإِيمَانِ، وَتَثْبِيتًا لِلْقُلُوبِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، قِيلَ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ: أَفَتَرَىٰ الْفِكْرَ عَمَلًا مِنَ الْأَعْمَالِ؟ قَالَ: نَعَمْ، هُوَ الْيَقِينُ».

فَالتَّفَكُّرُ طَرِيقُ الْعَبْدِ إِلَىٰ الْيَقِينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام:٧٥].

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا زَالَ الْمُؤْمِنُونَ يَتَفَكَّرُونَ فِيمَا خَلَقَ رَبُّهُمْ حَتَّىٰ أَيْقَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِرَبِّهِمْ.

وَأَعْظَمُ ثَمَرَاتِ التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ: تَوْحِيدُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ،**

---

(١) «أحكام القرآن» (٢/ ٣٥١-٣٥٢) لابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَـ«الْهِدَايَةُ الَّتِي يَجْلِبُهَا النَّظَرُ وَالتَّفَكُّرُ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ تُوَجِّهُ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، فَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، هُوَ الْمُقِيمُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، الرَّازِقِ، هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ سِوَاهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر: ٣].

بِهَذَا الطَّرِيقِ أَثْبَتَ الْقُرْآنُ بُطْلَانَ الْآلِهَةِ الْمُدَّعَاةِ، وَعَدَمَ اسْتِحْقَاقِهَا شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ؛ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١٠-١١].

وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ -تَعَالَىٰ- يُذَكِّرُ خَلْقَهُ بِالْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ، وَتَصْرِيفِهِ الْأُمُورَ، وَتَدْبِيرِهِ الشُّؤُونَ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ يُذَكِّرَ خَلْقَهُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ يُعَقِّبُ عَلَيْهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [الزمر: ٦] أَيْ: ذَلِكُمُ الْإِلَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ دُونَ سِوَاهُ»(١). (*).

---

(١) «العقيدة في الله»: (ص: ٩٨-١٠٩).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (الْمُحَاضَرَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: دَلَالَةُ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَىٰ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا)، الْخَمِيسُ ١٦ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٩-١٢-٢٠١٣م.

إِنَّ مُشَاهَدَةَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا جَعَلَ اللهُ فِيهِمَا مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ تَبْصِرَةً وَدَلَالَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ خَاضِعٍ خَائِفٍ وَجِلٍ رَجَّاعٍ إِلَى اللهِ ﷻ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨].

جَعَلْنَا تِلْكَ الْآيَاتِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ تَعْلِيمًا وَتَفْهِيمًا وَتَذْكِيرًا مُتَكَرِّرًا بِمَا سَبَقَ أَنْ تَعَلَّمَهُ وَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، يَنْتَفِعُ بِهَذِهِ التَّبْصِرَةِ وَالذِّكْرَىٰ كُلُّ عَبْدٍ يَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ -تَعَالَىٰ- بِالتَّدَبُّرِ فِي بَدَائِعِ صُنْعِهِ وَدَلَائِلِ قُدْرَتِهِ.(*).

مِنْ ثَمَرَاتِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ: أَنَّهَا دَلَالَاتٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ خَالِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَحِكْمَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٩].

«إِنَّ فِي ذَلِكَ عِبَرًا وَآيَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَىٰ رَحْمَةِ اللهِ، وَسِعَةِ إِحْسَانِهِ وَجُودِهِ، وَكَمَالِ اقْتِدَارِهِ وَعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ.

وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَعْتَبِرُ وَيَتَفَكَّرُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ تَفَكَّرَ أَدْرَكَ الْمَعْنَىٰ الْمَقْصُودَ؛ وَلِهَذَا قَيَّدَ -تَعَالَىٰ- الِانْتِفَاعَ بِالْآيَاتِ بِالْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام:٩٩]؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَحْمِلُهُمْ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَيَاتِهِ وَلَوَازِمِهِ الَّتِي مِنْهَا: التَّفَكُّرُ فِي آيَاتِ اللهِ، وَالِاسْتِنْتَاجُ مِنْهَا مَا يُرَادُ مِنْهَا، وَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ عَقْلًا وَفِطْرَةً وَشَرْعًا»(٢).

وَيُثْمِرُ التَّأَمُّلُ وَالتَّفَكُّرُ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَدَمَ الْغَفْلَةِ عَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا فِيهَا

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الْقِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيقُ عَلَىٰ مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ»- [الملك: ٣].

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٢٩٨).

مِنْ نَعِيمٍ وَعَذَابٍ، وَتَذَكُّرَ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ لَيْسَتْ بِدَارِ إِقَامَةٍ؛ فَـ«جَمِيعُ آيَاتِ السَّمَاءِ؛ مِنْ عُلُوِّهَا، وَسَعَتِهَا، وَعَظَمَتِهَا، وَلَوْنِهَا الْحَسَنِ، وَإِتْقَانِهَا الْعَجِيبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَشَاهِدِ فِيهَا؛ مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَاتِ، وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا النَّيِّرَاتِ الْمُتَوَلِّدِ عَنْهُمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَكَوْنِهِمَا دَائِمًا فِي فَلَكِهِمَا سَابِحَيْنِ، وَكَذَلِكَ النُّجُومُ، فَتَقُومُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَنَافِعُ الْعِبَادِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْفُصُولِ، وَيَعْرِفُونَ حِسَابَ عِبَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ، وَيَسْتَرِيحُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَيَهْدَأُونَ وَيَسْكُنُونَ، وَيَنْتَشِرُونَ فِي نَهَارِهِمْ، وَيَسْعَوْنَ فِي مَعَايِشِهِمْ.

كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ إِذَا تَدَبَّرَهَا اللَّبِيبُ، وَأَمْعَنَ فِيهَا النَّظَرَ؛ جَزَمَ جَزْمًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ اللهَ جَعَلَهَا مُؤَقَّتَةً فِي وَقْتٍ مَعْلُومٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مَحْتُومٍ، يَقْضِي الْعِبَادُ مِنْهَا مَآرِبَهُمْ، وَتَقُومُ بِهَا مَنَافِعُهُمْ، وَلِيَسْتَمْتِعُوا وَيَنْتَفِعُوا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا سَتَزُولُ وَتَضْمَحِلُّ، وَيُفْنِيهَا الَّذِي أَوْجَدَهَا، وَيُسَكِّنُهَا الَّذِي حَرَّكَهَا، وَيَنْتَقِلُ الْمُكَلَّفُونَ إِلَىٰ دَارٍ غَيْرِ هَذِهِ الدَّارِ، يَجِدُونَ فِيهَا جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ كَامِلًا مُوَفَّرًا، وَيُعْلَمُ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ أَنْ تَكُونَ مَزْرَعَةً لِدَارِ الْقَرَارِ، وَأَنَّهَا مَنْزِلُ سَفَرٍ لَا مَحَلُّ إِقَامَةٍ»[1].

يُثْمِرُ التَّأَمُّلُ فِي آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ شُكْرَ الْمُنْعِمِ ﷻ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٦٠٩).

«فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَنْبِيهٌ إِلَىٰ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ، وَيَسْتَبْصِرَ فِيهَا، وَيَقِيسَهَا بِحَالِ عَدَمِهَا؛ فَإِنَّهُ إِذَا وَازَنَ بَيْنَ حَالَةِ وُجُودِهَا وَبَيْنَ حَالَةِ عَدَمِهَا؛ تَنَبَّهَ عَقْلُهُ لِمَوْضِعِ الْمِنَّةِ، بِخِلَافِ مَنْ جَرَىٰ مَعَ الْعَوَائِدِ، وَرَأَىٰ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَزَلْ مُسْتَمِرًّا وَلَا يَزَالُ، وَعَمِيَ قَلْبُهُ عَنِ الثَّنَاءِ عَلَىٰ اللهِ بِنِعَمِهِ، وَرُؤْيَةِ افْتِقَارِهِ إِلَيْهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يُحْدِثُ لَهُ فِكْرَةَ شُكْرٍ وَلَا ذِكْرٍ»(١).

فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ هَذَا كُلَّهُ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْبَدِيعِ، وَجَعَلَهُ عَلَىٰ الْإِتْقَانِ كُلِّهِ.(*).

نَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَ عَلَيْنَا إِيمَانَنَا، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَيْهِ حَتَّىٰ نَلْقَىٰ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غَيْرَ شَاكِّينَ وَلَا مُتَرَدِّدِينَ، وَلَا زَائِغِينَ وَلَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ؛ إِنَّهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.(*/٢).

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧٣٠-٧٣١).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ وَاخْتِصَارٍ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (المُحَاضَرَةُ الْعَاشِرَةُ)، الثُّلَاثَاءُ ١٤ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٧-١٢-٢٠١٣م

(*/ ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَة: «الرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ» (المُحَاضَرَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ)، الْخَمِيسُ ١٦ مِنْ صَفَرٍ ١٤٣٥هـ| ١٩-١٢-٢٠١٣م.

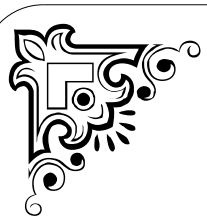

الْفِهْرِسُ

مُقَدِّمَةٌ ٣

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ٤

الْآيَاتُ كَوْنِيَّةٌ وَشَرْعِيَّةٌ وَمَعْرِفَةُ اللهِ بِهَا ١٣

جُمْلَةٌ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ١٨

دَلَالَةُ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ ٥١

دَلَالَةُ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَىٰ خَالِقِهَا وَمُبْدِعِهَا، وَالرَّدُّ عَلَىٰ الْمُلْحِدِينَ ٥٧

ثَمَرَاتُ التَّفَكُّرِ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ٧١